حكاية سرّ الزيت

وليد دقة



حكاية سرِّ الزيت

وليد دقة

سجن الجلبوع

صيف ٢٠١٧

حكاية سرِّ الزيت

أكتب حتى أتحرَّر من السجن

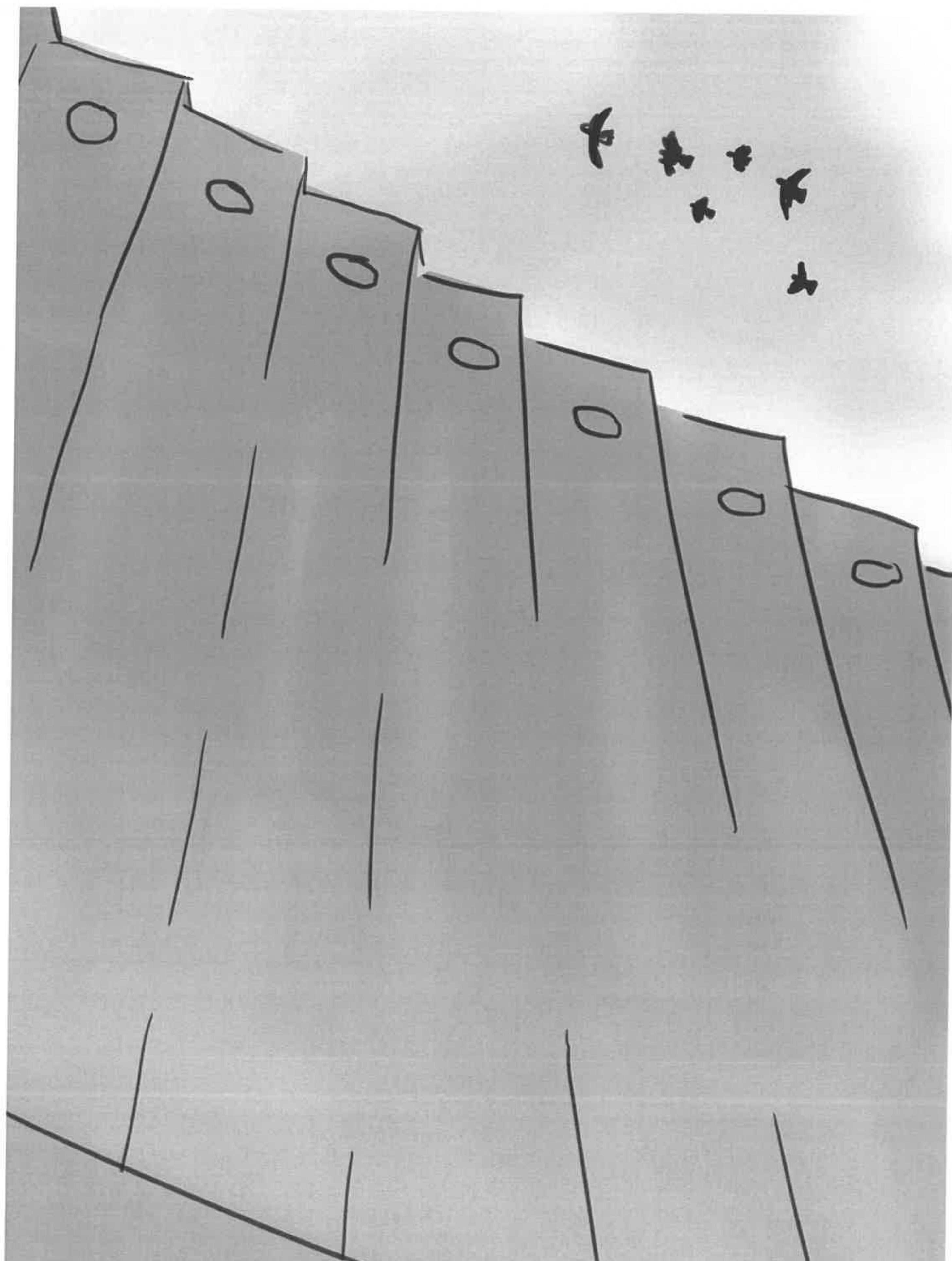
على أمل أن أُحرِّرهُ مني

إلى جود حتى يعيش طفولته

وإلى كلِّ الأطفال الذين أصبحوا رجالاً ونساءً

بالغين قبل أوانهم

وإلى كلِّ البالغين الذين حرمهم السجن طعم الطفولة



ركض جود نحو كروم الزيتون المحيطة بقريته، ركض وساقاه تبتلعان الطريق وكأنَّه يحاول الطيران دون أجنحة. ركض حتى وصل التلّة المشرفة على المدخل الغربي للبلدة، تسلَّقها ووقف على رأسها والدموع تملأ خدّيه الورديَّين من تدفق الدم، وصرخ بأعلى صوته:

«بدِّي أزور بابا... بدِّي أزوره... بدِّي أزور بابا!»

كان صوته يتردَّد بين الهضاب والوديان، ويأتيه الصدى بكلمةٍ واحدةٍ مفهومة: «بابا». لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يُمنع فيها جود وأمُّه من زيارة والده في السجن، فهو جاء إلى هذه الدنيا قبل ما يزيد على اثني عشر عاماً من نطفةٍ هرَّبها والده من السجن، وعقاباً له حرموه من زيارته، لكنَّ وقع الخبر على جود هذه المرة كان بحجم الآمال التي علَّقها على اللقاء بوالده، فقد تراكمت في نفسه أمورٌ كثيرةٌ، وبلغ عمراً يحتاج فيه لأن يشاركه بها. أراد أن يحدِّثه عن المدرسة، وعن أصدقائه ومغامراته، وأراد، أكثر من أيِّ شيء، أن يمسك وجهه ويحدِّق فيه، ويتأكَّد من أنَّ له أباً حقيقياً.

الأرنب السمُّور الذي كان مُنشغلاً منذ الصباح بتناول الخسِّ واللعب في حوش[1] المنزل، رأى جود يخرج مسرعاً ويركض نحو التلَّة القريبة. ترك السمُّور وجبته وركض في أعقاب الصبي، ووصل لاهثاً، ثم قال وهو يحاول أن يلتقط أنفاسه:

«جود، يا جود، ليش عم تبكي؟»

أجابه جود متفاجئاً من وجوده، وهو يمسح دموعه خلسةً:

«أنا ما ببكي».

ابتسم الأرنب السمُّور وقال:

«والدموع اللّي على خدودك؟»

أنكرها جود وقال:

«هذي مش دموع، هاظ[2] عرق لأنّي كنت أركض».

لكنَّ السمُّور ظلَّ يلحُّ عليه وقال:

«مثل ما إنتَ سمعتْ شو حكتْ إمَّك لعمتك، أنا كمان سمعتْ».

فسأله جود:

«ليش شو سمعتْ؟»

---

(١) حديقة المنزل، أو الأرض المحيطة به، وتكون مزروعة غالباً بالخضار وأشجار الفاكهة

(٢) هذا

«سمعتْ إنّه الجيش رفض يعطيكم تصريح زيارة، والمنع هذي المرة منع أمني».

قاطعة جود بعصبيةٍ وقال:

«إنَّك تدخل حوش بيتنا وتاكل خضرتنا على راحتك هذي سمحنالك فيها، بَس[٣] حضرتك تتدخَّل في حياتي، لأ، هذا أمر ما بيعنيك!»

بقي السمُّور صامتاً للحظاتٍ، فهو لم يتوقع مثل هذه الحدِّية في الرد، ثم اقترب من جود وأمسكه من كتفيه، وقال:

«كيف الأمر ما بعنيني؟ إنتَ صديقي يا جود، نسيت إنَّك الوحيد اللِّي حضنّي بعد ما بنوا جدار الفصل، وبقيت أنا هون وإمِّي السريعة وإخواتي حبُّوب وشلهوب هناك؟»

قال جود بهدوء:

«ما نسيت، بَس شو دخل؟»

«دخل، دخل»، قال السمُّور، «إنت مش قادر تنُطّ[٤] عن الجدار لتزور أبوك في السجن، وأنا كمان مش قادر أنُطّ عن الجدار وأروح[٥] عند أهلي، الجدار عالي كثير يا جود، عالي

(٣) لكن

(٤) تقفز

(٥) أذهب

وبيخوِّف[٦]، وواصل للسّما!»

«بَس أنا رايح أنُطّ عن الجدار»، قال جود بحزمٍ وقد بدَتْ على وجهه علامات الغضب والتصميم.

«وأنا مُستعد أنُطّ معك»، قال السمُّور، ثم سأل:

«بَس كيف؟»

«بعرَفش[٧] كيف، لازم أفكر بالموضوع»، ثم صمت جود وقال بصوتٍ خافت:

«بَس بدّي منَّك يا السمُّور ما تحكي لحدا إنّي بكيت».

نظر السمُّور إليه وقال:

«أكيد، أكيد مش راح أحكي، بس لازم تعرف إنُّه البُكا مش عيب. ذاكر شو قالت لي إمَّك لما بكيت على فراق أهلي بعد ما بنوا الجدار؟ قالتلي ابكِ يا السمُّور، ابكِ حتى تِبيَض فروتك وتصير مثل قلب جود أبيض من الثلج».

قال جود: «والبُكا بغسل العيون».

واصل السمُّور وهو يتناول من جيبه ورقة ملفوف ويمسحها بفروتِهِ قبل أن يقضم منها: «وبيغسل القلب كمان. ما تخجل من دموعك يا جود، الحزن شي طبيعي، لكن اللّي مش طبيعي هوّي

---

(٦) مخيف

(٧) لا أعرف

إنَّك تغرق بالحزن وما تعمل إشي غير إنَّك تحزن. بَس السؤال شو ممكن نعمل؟»

أجابه جود دون تردُّد:

«إنُّه نفكر».

«نفكر بشو؟»

قال جود:

«نفكر بطريقة ننُطّ فيها عن السور».

وصل أبو ريشة كعادته فجأةً، ودون سابق إنذارٍ، وهو يرفرف ورجلاه لم تصلا الأرض بعد، وقال:

«مرحبا، شو بتعملوا؟»

«بنفكر، بدَّك تفكر معنا؟» قال السمُّور لأبي ريشة وهو ما زال يقضمُ ورقة الملفوف.

«وبإيش[8] بتفكروا؟»

«بنفكر كيف بدنا نخلِّي جود ينُطّ عن السور ليزور أبوه في السجن بدون تصريح من الجيش، عندك أي فكرة؟»

قال أبو ريشة:

«عندي جناحين أطير فيهم، بَس ما عندي عقل زي[9] جود

---

(٨) بماذا؟

(٩) مثل

يفكر، التفكير بكبِّر الراس وبدوِّخني».

قال جود ضاحكاً:

«لو التفكير بكبِّر الراس لكان براط حمار دار أبو عمشة أفهَم واحد في بلدنا!»

«طيّب، أنا عندي فكرة، ليش يا أبو ريشة ما تحمل جود وتطير فيه من فوق الجدار، وتاخذه ليزور أبوه في السجن؟» قال السمُّور بثقةٍ وكأنَّه وجد الحل.

سخر أبو ريشة من فكرة السمُّور، وقال وهو ما زال يتقافز على فروع نبتة العُلّيق: «قلتلَّك يا السمُّور التفكير مش شغلتنا شغلة جود، كيف يا محترم بدِّي أحمله؟!»

قال جود وهو يوجِّه كلامه للسمُّور:

«صحيح كلامه، أبو ريشة مش حامل حاله، فكيف بدُّه يحملني؟ وزني ٣٧ كيلو، ووزنه يا دوب[١٠] ٣٠٠ غرام، احسبها بشطارتك!»

«طيِّب والحل؟» سأل السمُّور بعجزٍ دون أن يحسب شيئاً.

صاح أبو ريشة وهو ما زال يتقافز من فرعٍ إلى فرعٍ:

«أنا عندي فكرة أحسن، شو رأيكم نسأل البِسّ[١١] خنفور؟

---

(١٠) لا يتجاوز

(١١) القط

أكيد بعرف شي ثغرة في الجدار، هوِّي الوحيد اللِّي بيزور أقاربه في الناحية الثانية».

قال السمُّور:

«فكرة منيحة[١٢]، هيّاتَك[١٣] بتفكر يا مقصوف الريش! بس لازم نصل شجرة الخروب قبل ما السيد خنفور يطلع للصيد، ساعة قيلولته قرَّبت تخلص».

قال أبو ريشة:

«أكيد رايح يكون غرقان بالنوم وبيخنفر[١٤] مثل عادته، اتركوا تِصحايتُه[١٥] علي».

ضحكوا من الفكرة، وساروا سوياً باتجاه شجرة الخروب في أعلى التلِّ المجاور، فهم يعرفون مقالب أبي ريشة وتنكيده على حياة الخنفور.

قبل أن يصلوا شجرة الخروب التي استلقى البِسُّ الخنفور في ظلِّها ببضعة أمتار، طار أبو ريشة وحطَّ على رأس الخنفور وبدأ يزقزق بصوتٍ عالٍ وينقر أنفه بقوة. قفز الخنفور مذعوراً

---

(١٢) جيدة

(١٣) ها أنت

(١٤) يشخر

(١٥) إيقاظه من النوم

مستعداً للقتال بعد أن قلّص جسده مُستجمعاً قوّته ورافعاً ذيله، ومصدراً أصواتاً أفزعت كلَّ العصافير التي احتمتْ من الحرِّ بورق شجرة الخروب، فيما انفجر جود والسمُّور بالضحك. وعندما أدرك الخنفور ما الذي يحدث، صاح غاضباً:

«قلتلّك يا أبو ريشة ألف مرّة ما تصحّيني بهالطريقة ولا تلمس أرنبة أنفي، هذي أكثر عضو حساس في جسمي، ونقطة ضعفي ومَقتَلي كمان».

قال جود محاولاً تهدئته:

«ما تغضب يا خنفور، أبو ريشة بيمزح معك، إنتَ عارفه بيحبِّ المقالب، وبعدين بيحبّك».

ظلَّ الخنفور عصبيَّ المزاج، لكنَّه تخلَّى عن حالة التأهُّب التي اتَّخذها، وقال: «أنا ما بحِب هاظا[١٦] النوع من المزح، خصوصاً من أبو ريشة، حضرته بعمل العملة وبطير، وهيهات تا تمسكه!»

ضحكوا جمعياً بعد أن أيقنوا أنَّ مزاج الخنفور قد تعدَّل. وبعد لحظاتٍ من الصمت، عاد السمُّور إلى سؤال الخنفور، وأخذ الحديث طابع الجدِّ:

---

(١٦) هذا

«إيمتى[17] آخر مرَّة قطعت فيها الجدار؟»

خنفور: «الليلة الماضية».

السمُّور: «كيف الطريق؟»

خنفور: «سالكة، بَس بِدْها حذر. ليش بتسأل؟»

السمُّور: «بدنا نأمِّن مرور لصاحب إلنا للجهة الثانية من الجدار».

خنفور: «مين؟»

نظر الجميع إلى بعضهم البعض، ثم تقدَّم جود وقال:

«أنا، أنا يا خنفور».

«إنــتَ!؟» تساءل الخنفور باستغرابٍ شديدٍ، «شو بدَّك بهالشَّغلة؟ إنتَ صغير وشاطر في المدرسة، خلِّيك في مدرستك، إمَّك بتشتغل، وبيتكم الوحيد اللِّي بتطلع منُّه ريحة زفر[18]! اسألني إلي، في حارتكم ما في زبالة غير زبالتكم، هيِّ الوحيدة يلِّي بتتنبَّش!»

ابتسم أبو ريشة وقال:

«ولك لازم يسمُّوك خمخوم مش خنفور!»

واصل جود حديثه بجديةٍ أكثر، وقال:

---

(١٧) متى

(١٨) دسم

«مين جاب سيرة المدرسة؟»

«مش بدَّك تقطع الجدار لتشتغل؟ وهيك معناها بدَّك تترك المدرسة».

تقدَّم السمُّور من الخنفور وقال:

«يا حبيبي يا خنفور، جود بدُّه يزور أبوه في السجن، ما بدُّه يشتغل».

«طيِّب يطلِّع تصريح».

«مانعينُه ومانعين إمُّه كمان».

«ليش؟»

«قال يا سيدي منع لأسباب أمنية!»

«أُففف! جود ممنوع لأسباب أمنية! والله صارلك ملف عند الاحتلال يا أبو الجوج! طيِّب وعمتُه إم فلاح ما بسمحولها تزوره؟»

تدخَّل جود في الحوار بين الخنفور والسمُّور محاولاً الوصول إلى نتيجةٍ ما، وقال:

بسمحولها يا خنفور، بَس عمتي كبرت بالعمر، ويا دوب تِصَل حوض النعنع في حوش دارها! بعدين من حقِّي أزور أبوي، أنا عمري ما شفتُه[١٩]، ما بعرفه إلَّا في الصورة، بدِّي أحس زي

---

(١٩) لم أرَه

باقي البشر إنّي إلي أبو[٢٠]!»

قال السمُّور:

«وأنا كمان ما شفت إمّي وإخواتي من يوم ما بنوا هالجدار!»

«وإنتَ كمان مانعك الجيش؟» سأل الخنفور مازحاً، ومحاولاً تبديد جوٍّ الحزن الذي ساد.

«لأ، أنا مانعتني وزارة الصحة بعد ما انتشر مرض فلونزا الخنازير!» أجابه السمُّور ساخراً بسؤاله، «بقُلَّك الجدار.. الجدار سبب كلِّ المصايب!»

وقف الخنفور كالطاووس «نافش حاله»[٢١] وكأنَّه يريد أن يخطب في الناس، وقال: «أي نعم، بعرف كل ثغرة في الجدار، وأي نعم محسوبكم[٢٢] طالع نازل، بَس ما بعرف فتحة وحدة يمكن يمُرّ منها جود، حتى الفتحات اللّي كانت الكلاب تستخدمها سكّروها، وظلّت الفتحات يلّي بحجمي، ويوم بكون ماكِل كوّيس[٢٣] بكون رجوعي صعب بنفس الليلة».

السمُّور: «يعني الشغلة شغلة حجم؟»

---

(٢٠) أب

(٢١) متباهياً

(٢٢) صاحبكم

(٢٣) كثيراً

الخنفور: «لأ، مش بَس، بِدْكُم حدا يراقب الدورية حتى نقطع الشِّيك[٢٤]، وحدا يعرف وين زارعين أجهزة الإنذار حتى ما تدعسوا[٢٥] عليها».

قال أبو ريشة: «يا حبيبي، هذي شغلة كبيرة! إذا حضرتك مش رايح تفيدنا بكل هالحكي، طيِّب على شو نافش حالك!؟»

السمُّور: «أبو ريشة نقِّطنا بِسكوتَك[٢٦]».

أبو ريشة: «بنقِّطكوا، بس يجاوبني الخنفور على سؤالي، إذا كان كل هالحواجز في الطريق، كيف حضرتُه طالع نازل بقطع الجدار؟»

«شو يعني بتكذِّبني؟» سأل الخنفور بغضبٍ، مما دعا جود لأن يتدخَّل: «حديث الخنفور بيعني إنُّه مش مهم نقطع الجدار، المهم شو نعمل بعد ما نقطعه حتى ما ننكشف. حجم الخنفور يا أبو ريشة بِمَكنُه[٢٧] يدخل من كل ثغرة، ووزنه ما بشغِّل الإنذار مثل وزني حتى لو دعس[٢٨] عليه، عشان هيك معاه حق الخنفور، لإنُّه أي عمل ببدأ بالتفكير، وحتى نفكر صح لازمنا معلومات

---

(٢٤) السياج

(٢٥) تدوسوا

(٢٦) نقّطنا بسكوتك: اصمِت

(٢٧) يمكّنُه

(٢٨) داس

صحيحة».

خنفور: «هيك بالضبط كنت بدِّي أحكي. المهم، اللِّي رايح يفيدنا بالمعلومات أكثر هوِّي أبو ناب».

السمُّور: «الكلب أبو ناب؟» سأل باستهجان.

«هوِّي ذاته»، قال الخنفور.

السمُّور: «بس هاظا...».

قاطعه الخنفور: «بعرف شو بدَّك تقول».

«إيش بدُّه يقول يا خنفور؟» سأل جود.

«بدُّه يقول إنُّه أبو ناب اشتغل بالتنسيق، ومن جماعة التنسيق الأمني».

«طيِّب؟» واصل جود استفساراته، «والحكي معاه[٢٩] مش رايح يورِّطنا ويكشف أمرنا؟»

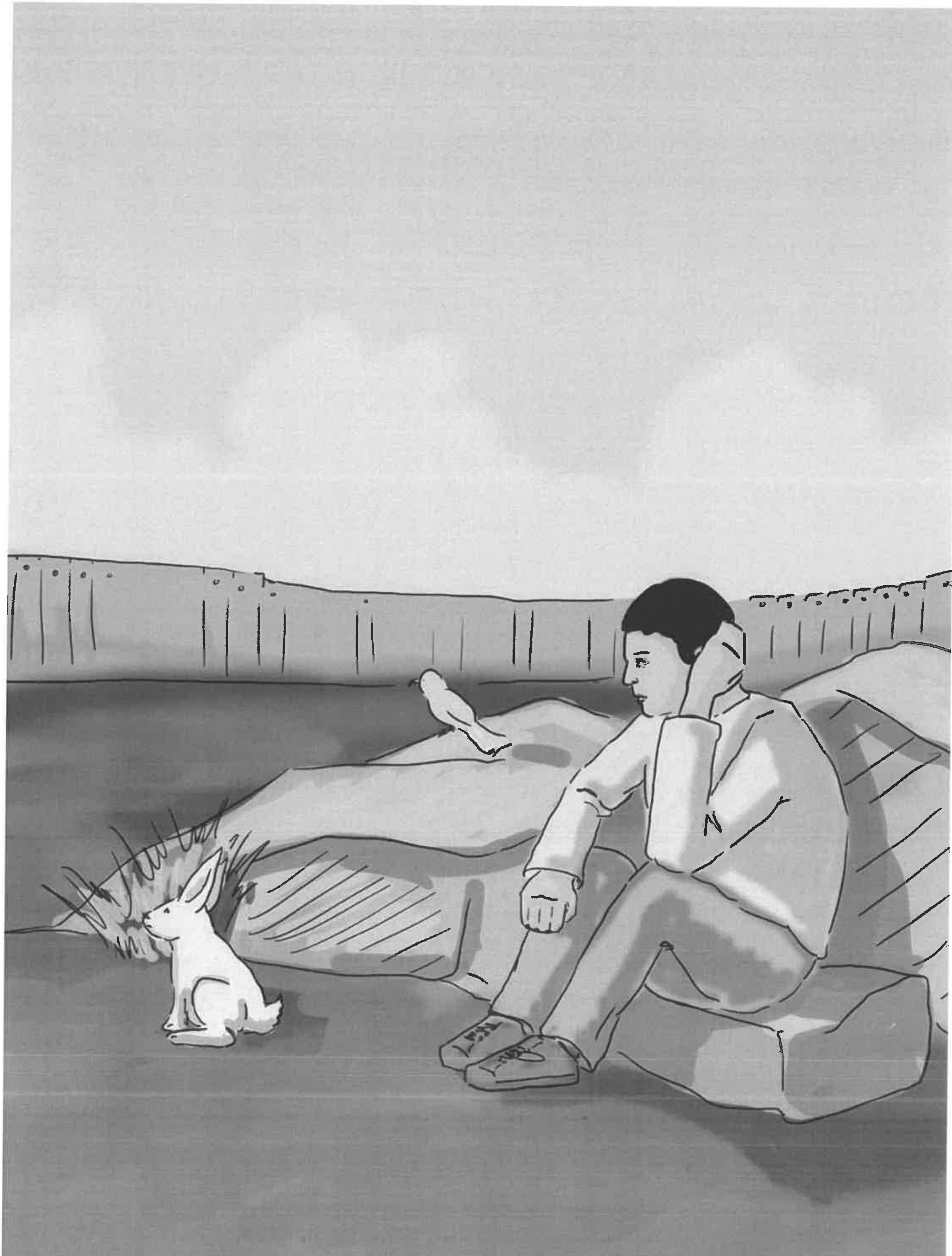
«لأ، على الإطلاق»، قال الخنفور بثقة.

«ومن إيمتى هالثقة بين البِسّ والكلب!؟» سأل السمُّور. لكنَّ الخنفور لم يردَّ عليه مباشرةً، وبدا وكأنَّه يفكر في إجابته، وقال:

«لما صار همِّ البشر والحيوانات واحد. الهمّ بيوحِّد المخلوقات بدون تمييز».

---

(٢٩) معه



كان الخنفور يتحدَّث وقد تغيَّرت نبرة صوته، وكأنَّه يحاول زحزحة كتلةٍ من الألم والحزن الذي اختزنه في صدره، ثم قال: «اللِّي بَشوفُه كل ليلة بعبر فيها الجدار ما حدا بيشوفُه، سعر البني آدم بسعر الحيوان! كلنا بندوِّر[٣٠] على رزقنا تناكل، لو تشوفوا كيف شباب ورجال بهربوا مثل باقي الحيوانات من الشرطة وحرس الحدود وبتخبُّوا[٣١] في الزبالات وبين الخرابات بتفهموا كلامي، اللِّي بِطارِدنا واحد، والجدار واحد، وأبو ناب مِش عدوِّي، أبو ناب بيختلف عنِّي بَس بشاركني نفس الهمّ. الاحتلال والفقر خلُّونا نتعوَّد على أشياء غريبة، ونفقد إحساسنا ببعض، وتصير اللُّقمة كل همّنا بدون ما نسأل من وين ولا كيف ولا شو الصَّح وشو الغلط[٣٢]».

«آه يا خنفور!» تنهَّد جود وقال، «لو كل مخلوقات الله تفهم كلامك يمكن ما ظلّ جدار ولا ظلّ عصفور بقفص، ولا أب في

---

(٣٠) نبحث

(٣١) يختبئون

(٣٢) الخطأ

سجن». ثم حسم موقفه من أبي ناب:

«طيِّب، أنا موافق نفتح الموضوع مع أبو ناب، بَس وين رح نلقاه؟»

قال أبو ريشة: «أنا بعرف وين نلقاه»، ثم سأل فجأة:

«تنسيق شو اللِّي كنتوا تحكوا عنه؟»

«تنسيق الورد»، أجابه السمُّور مبتسماً.

سار الجميع خلف أبي ريشة الذي قال إنَّه شاهد أبا ناب أكثر من مرَّةٍ يجلس بالقرب من عين الماء عند سفح الجرف، وهي أقرب للمستوطنة منها للقرية، ولا أحد يقترب من هذه المنطقة المقطوعة عنها الطرق، سوى بضعة طرقٍ جبليَّةٍ ضيِّقةٍ بالكاد تتَّسع لشخصٍ واحد.

وقف أبو ناب من بعيدٍ على ساقيه وأذناه مُنتصِبتان، لكنَّه ظلَّ صامتاً ولم يصدر أيَّ صوتٍ حتى اقترب منه الجميع، وسألهم: «لوين رايحين؟ هذي الطريق مقطوعة، ومنَّا وفوق المستوطنة».

«جايِّين عندك يا أبو ناب»، قال السمُّور.

«عندي!؟»

«آه، عندك»، أجابه جود، «بدِّي أسألك، ليش سمُّوك أبو ناب؟»

أبو ناب: «قاطعين كل هالطريق لتسألني عن اسمي!؟»

«لأ، جايِّين[٣٣] لتساعدني في عبور الجدار، بدِّي أزور أبوي في السجن، بَس الخنفور طول الطريق وهوِّي يحكيلي عنك، وعرفت منُّه أشياء كثيرة، بَس الإشي الوحيد اللِّي ما عرفته ليش أبو ناب ومش أبو نياب؟»

فتح أبو ناب فمه وأراهم أسنانه، وقال:

«زي ما إنتو شايفين، ما عندي إلَّا ناب واحد».

«وين أنيابك؟» سأله الخنفور.

«كسروها الأمريكان».

صاح أبو ريشة متهكماً: «أكيد من يومها صرت نباتي، كلب وبياكل[٣٤] جزر!»

«أبو ريشة!» صاح به السمُّور، «اتركنا من مسخرتك».

«وليش حضرتك الوحيد اللِّي حِمِق[٣٥]؟!» قال أبو ريشة وهو يواصل تهكُّمه، ثم أضاف: «ولَّا لإنُّه جزر؟ كُلنا في هالمرحلة بناكل جزر، مش بس الأرانب، فما تكون حساس حبيبي أكثر من اللازم».

واصل جود طرح الأسئلة على أبي ناب، فعرف أنَّه كان كلب

---

(٣٣) جئنا

(٣٤) يأكل

(٣٥) غضِبَ

صيدٍ لدى شيخ عشيرة الجمَّالين الذي دعا ضباطاً من المخابرات ليشاركهم رحلة الصيد. أعجب رئيس الجهاز بذكاء أبي ناب، فقدَّمه الشيخ هديةً له، فألحقه مباشرةً بدورة تدريباتٍ خاصةٍ بكشف الأسلحة والمواد المتفجرة، وقد أبدع أبو ناب في عمله الجديد، وكشف عن الكثير من أماكن إخفائها ومحاولات تهريبها، ممَّا شجَّع رئيس الجهاز على أن يلحقه بدورةٍ أمريكيةٍ خاصةٍ وشاقَّةٍ، كشف فيها أبو ناب عن ملَكَاتٍ مُتقدمةٍ، كأن يكتشف بحاسة الشَّمِّ ليس المواد الخطيرة فحسب، إنما الأفكار الخطيرة أيضاً، ولكنهم تعمَّدوا كسر أنيابه في هذه الدورة، وعندما اشتبهوا بإمكانياته الكبيرة نقلوه إلى قسم التنسيق.

«ليش كسرولك كل أنيابك وتركوا ناب واحد؟»

«حتى أعُضّ وما أعُضّ، يعني أكون كلب ومش كلب. عموماً اللِّي قدرت أفهمه إنُّه هذا كان شرط إسرائيلي لالتحاقي بالدورة الأمريكية».

غابت الشمس وهم جالسون يتحوَّطون أبا ناب ويستمعون إلى الحكايات التي يقصُّها عليهم، فقد تبيَّن أنَّه حكواتيٌّ جيد، وأكثر ما شدَّتهم قصصه مع الجيش في الانتفاضة الأولى التي تعرَّف خلالها على أبي جودٍ ورفاقه، ونقل لهم بيانات القيادة الوطنية الموحَّدة من موقعٍ إلى موقعٍ أثناء منع التجوال، فتجربته

ومجمل خبراته الأولى اكتسبها من تلك المرحلة، وهروبه من الخدمة في التنسيق دفع الاحتلال لفتح ملفاتٍ قديمةٍ اضطرَّ أن يبقى بسببها مختفياً في الجبال بعيداً عن أعين الناس، لدرجة أنه يقضي أياماً بكاملها دون طعام.

فسأله جود فور سماعه لذلك: «بدَّك تروح معي توكل لقمة؟»

قال أبو ناب:

«لأ، ما بقدر أتحرَّك هذي الليلة، حضوركم أكيد لفت الانتباه في المنطقة».

«طيِّب كيف بدَّك تساعدنا نقطع الجدار؟ ومين بدُّه يكشف المجسَّات في الأرض؟» سأل السمُّور.

فردَّ أبو ناب:

«أولاً، مش أكيد في مجسَّات، هذي دعاية نشرها الاحتلال ضمن خطَّة ليخوِّف الناس من العبور. وثانياً، رايح أكون معكم، وإذا في أي مجسَّات رح أكتشفها، حاسة الشَّم عندي بعدها قوية، ما تقلقوا. بدِّي يوم يومين حتى ألاقي فرصة ملائمة لأخرج من هاي المنطقة. لا تقلق يا جود، أبوك كان صديقي، وزي ما بتقولوا: الكلب وفي لأصدقاؤه».

تفاءل جود بحديث أبي ناب، وتذكر سورة «الكهف» عندما نطق جملته الأخيرة، فاستأنس بأهل الكهف وكلبهم الذي رافقهم.

مرَّتْ ثلاثة أيام، وها هم أربعتُهُم يقفون أمام جدار الفصل، وصديقهم الكلب أبو ناب خامسهم. كان للجدار في ضوء القمر ظلٌّ مخيفٌ، وبدا لجود أعلى مما كان يراه من بعيد، فأصيب بانقباضٍ في أمعائه سرعان ما تحوَّل إلى مغصٍ شديدٍ أحرجه، وأظهره أمام أصدقائه كمن يبحث عن ذريعةٍ للتراجع عما كانوا قد اتفقوا بشأنه خلال الأيام الماضية.

لم يُخفِ جود قلقه من عبور الجدار، ومن مخاطر أن تكشفهم دورية جيش الاحتلال قبل الوصول إلى كرم الزيتون القريب، وهم يقطعون مساحة الأرض الجرداء التي كانت جزءاً من الكرم قبل أن تُصادَر ويُجرَف زيتونها، ففي قطع هذه المسافة، قال جود لنفسه، يكمن الخطر الحقيقيُّ، وليس في الحفر تحت الجدار.

أخذ جود بما كان قد أوصى به الخنفور، وطلب من أبي ريشة أن يطير ويقف على أعلى نقطةٍ في الجدار لتصبح المنطقة الغربية حتى كرم الزيتون مكشوفةً أمامه، واتفق معه على أن يغرِّد بصوته مرَّتين كلَّما اقتربت دورية الجيش من نقطة الحفر التي سيبدؤون بها، وثلاث مرَّاتٍ عندما تبتعد الدورية عن المنطقة.

تمركز أبو ريشة في موقعه، وقادهم الخنفور نحو أوسع ثغرةٍ في الجدار ليبدؤوا الحفر. عبر من الثغرة أولاً كلٌّ من

السمُّور والخنفور، وباشرا الحفر من الجهة الغربية نحو الداخل، ومن الجانب الشرقيِّ شرع جود وأبو ناب في توسيع الفتحة، وعند حوالي الساعة الرابعة فجراً كانوا قد أنجزوا اللازم دون أن يستخدموا أيَّة أداةٍ للحفر، بالرغم من إحضار جود فأساً صغيرةً، إلا أنَّ أبا ناب نصحه بعدم استخدامها، علماً أن الحفر بالفأس أسرع وأسهل بكثير، إلَّا أنَّ الحفر بالأيدي، كما قال أبو ناب، لا يصدر صوتاً كالفأس، كما نبَّه إلى أنَّ عليهم الأخذ بأسوأ الاحتمالات، وهو وجود مجسَّاتٍ أرضيَّةٍ فعلاً، وأنَّها ليست مجرَّد دعايةٍ نشرها الجيش.

كان أبو ناب أوَّل من عبر وقطع المنطقة الفاصلة ما بين الجدار والأسلاك الشائكة مستخدماً حاسَّة الشَّمِّ للتأكد من عدم وجود مجسَّاتٍ أو مُعيقاتٍ أخرى، ثم تبعه الخنفور والسمُّور وجود، وما أن عبروا الأسلاك الشائكة حتى بدأوا بالركض بأقصى طاقتهم، وأبو ريشة يحلِّق من فوقهم، كي يصلوا كرم الزيتون قبل عودة الدورية. وقبل أن يختفوا داخل الكرم بأمتارٍ قليلةٍ سمعوا طلقاتٍ ناريَّةً قريبةً منهم، وإذ بمجموعةٍ من الرجال والنساء يركضون باتجاهاتٍ مختلفةٍ حاملين أشياءهم القليلة بأيديهم، تطاردهم دورية جيش الاحتلال، ولما ازداد أزيز الرصاص حِدّةً، وأطلقت بعض قنابل الإنارة، قال الخنفور إنَّ ثمَّة كهفٌ قريبٌ

يمكنهم الاختباء فيه إلى أن يزول الخطر. ركضوا في أعقابه، فقادهم إلى فتحةٍ في الصخر لم تكن كبيرةً، لكنَّها كافيةٌ لأن يعبر جود منها. انسلُّوا جميعاً إلى الداخل باستثناء أبي ريشة الذي اختفت آثاره منذ اللحظة الأولى التي بدأ فيها إطلاق النار. كان الكهف في الداخل واسعاً نسبياً، ويبدو أنَّ الكثيرين لجأوا إليه في طريق عبورهم الجدار، ففي وسطه موقد نارٍ هامدٌ وأعقاب سجائر وزجاجاتٌ فارغةٌ ملأت المكان. تفاجأ جود بحركة ظلالٍ في الداخل، وأدرك أنَّهم لم يكونوا وحدهم في الكهف، فقد كانت هناك مجموعةٌ من ثلاثة عُمَّالٍ شبَّانٍ في منتصف العشرينات، ورجلٍ غزا الشيب بعضاً من رأسه، فلمع الشعر في ضوء القمر الخافت الآتي من الفتحة، ذكَّر جود بصورة والده الأخيرة التي أرسلها له من السجن، وامرأةٍ في منتصف الأربعينات جلستْ في زاوية الكهف تتنفس بصعوبة، نظر إليها جود خلسةً، فقد بدَتْ له استثناءً ومشهداً لا ينسجم مع ما يجري من حولهم، وقد جلستْ منزويةً عن الباقين، مما جعله يشعر أنَّها لا تعرفهم ولا صلة لها بهم، لكنَّهم بدوا وكأنَّهم يعرفونها جيداً، أو على الأقل ليست هذه المرَّة الأولى التي تدخل فيها معهم هذا الكهف، فلم يروا فيها استثناءً كما رآها، وإنَّما اعتبروا وجوده هو الأمر غير المألوف، ولم يتوقفوا عن التحديق فيه. كانت أنفاس المرأة الثقيلة تزداد

صعوبةً، وبدا أنَّها تعاني من ضيقٍ في التنفس، فقد أخرجتْ من الكيس الذي حملته علبةً استنشقتْ منها حتى توقفتِ الأنفاس التي شقَّتِ الصمت داخل الكهف، وبقي هدير مُحرِّك آلية حرس الحدود في الخارج، والذي ظلُّوا يسمعونه حتى ابتعدت من المكان واختفى صوتها معها تماماً. أراد جود في هذه اللحظة أن يبادر المرأة ويسألها عن سبب اجتيازها الجدار في مثل هذا الوقت، لكنَّ الرجل الأشيب فاجأه بالحديث بعد أن قدَّم له عُبوَّةً من الماء، وقال:

«اشرب ما تخاف، شويِّة[٣٦]وبنصير جُوَّه[٣٧]».

تناول جود عبوَّة الماء ولم يُعلِّق على كلام الرجل، سكب في كفِّه بعض الماء وقدَّمه لأصدقائه الثلاثة ليَلعَقوه، وأعادها للرجل دون أن يشرب، فأثار سلوكه هذا فضول الرجل الأشيب الذي سأله:

«وين بتشتغل؟»

«ما بشتغل»، قال جود الذي بدا شارد الذهن يسترق النظر إلى المرأة التي ما زال وجودها في المكان غير مفهومٍ بالنسبة له.

«ولَّا وين رايح؟» زادت تساؤلات الرجل حول مقصد هذا

---

(٣٦) القليل من الوقت

(٣٧) في الداخل

الصبي والحيوانات التي ترافقه.

«رايح أزور أبوي».

«وين أبوك؟»

«أبوي في السجن»، ردَّ جود بكلِّ بساطة.

«بدَّك تزوره في السجن؟!» سألت المرأة باستهجانٍ شديدٍ بعد أن سمعت إجابة جود، «كيف بدَّك تزوره بدون تصريح؟ لأ ما بصير»، ثم واصلت حديثها بعد أن بقي جود صامتاً، وقالت:

«إلي ابن في السجن، كل سنة تا يطلعلي تصريح، ومرَّات بصل باب السجن وما بيخلُّوني أزوره. إنتَ لازم ترجع على بيتكم، إنتَ بعدك صغير، هذي مخاطرة!»

«واللِّي بتعملوه مش مخاطرة؟ كُلنا بنخاطر. لو كنت بنظرهم صغير كان أعطوني تصريح! أنا من يوم ما انولدت وأنا بنظرهم كبير وخطر أمني ممنوع من الزيارة»، ردَّ جود بلا تردُّدٍ أو تفكير.

«يا خالتي مخاطرة عن مخاطرة بتفرِق. أنا بحب ابني اللِّي في السجن، وربنا يعلم قدِّيش[٣٨]، بَس ما بخاطر مشان[٣٩] أزوره، اللِّي بخاطر عشانهِن خواتُه التنتين[٤٠]، بشتغل عشان أعلِّمهن،

---

(٣٨) إلى أي درجة

(٣٩) كي

(٤٠) الاثنتين

الشوق مَقدور عليه، بَس الفقر والجهل لأ».

ظلَّ جود مُنصتاً يفكر في حديث المرأة التي قالت إنَّها تدرِّس ابنتَيها في الجامعة، وأنَّها المُعيل الوحيد للأسرة بعد اعتقال ابنها ووفاة زوجها بالسكتة القلبية بعد هدم بيتهم «شقا عمرهم» بأشهرٍ قليلة.

«عُمرُه البيت[٤١]، اللِّي بناه ببني غيره، وما بِعمِّر البيوت إلا تربية الولاد وعلامهم[٤٢]، روح يا خالتي لإمَّك ودير بالك على مدرستك».

كاد جود أن يقتنع بضرورة عودتهم، فهو يدرك ما تقوله الخالة، لكنَّه شعر بالحرج الشَّديد من أصدقائه، فبعد كلِّ هذا الجهد الذي بذلوه سيعودون أدراجهم دون أن يحقِّقوا ما جاؤوا من أجله! ظلَّ جود ساهماً إلى أن جاء حديث أبي ناب الذي أنقذه من الحرج ومن عناده الذي قد يعرِّضهم للخطر الحقيقيِّ، عندما قال إنَّهم حسبوا حساباتٍ صحيحةً ودقيقةً في عبور الجدار، وهذا الجزء من الخطة نفَّذوه بالكامل دون عراقيل، لكنَّه كان الجزء الأسهل، وأنَّهم لم يحسبوا حساب سور السجن الذي

---

(٤١) جملة تستخدم للتعبير عن عدم أهمية الشيء المذكور، خصوصاً إذا كان شيئاً يمكن تعويضه بالمال

(٤٢) تعليمهم

ظنُّوا أنَّه كالجدار، وأنَّهم سيتمكَّنون من اجتيازه بنفس الطريقة، لكن، وكما قال أبو ناب، فإنَّ اجتياز جدار السجن يحتاج إلى تفكيرٍ وجهدٍ خاصٍّ ومختلف. أكَّد السمُّود والخنفور على كلام أبي ناب، وأكَّدوا لجود أنَّهم لم يفشلوا، والدليل أنَّهم تجاوزوا الجدار ووصلوا إلى هنا، ثم أخبروه أنَّ الفتحة التي عبروا منها ستظلُّ موجودة، ويمكنهم عبور الجدار منها متى شاؤوا، وتعاهدوا على أن يبقوا أصدقاء أوفياء له، وأنَّهم سيكونون معه دائماً حتى يزور والده في السجن.

خرج الجميع من الكهف، ولم تخرج الخالة إلَّا حين خرج جود واطمأنَّتْ أنَّه عاد أدراجه نحو الجدار، فقد لمستْ من حديثه عزَّة نفسٍ وعناداً وشوقاً شديداً لوالده، وخشيتْ أن يقوده الأمر إلى مخاطرةٍ غير محسوبةٍ، وظلَّتْ واقفةً تراقبه إلى أن ظهر أبو ريشة مجدداً وبدأ في استطلاع طريق عودتهم.

غطَّ جود في النوم قبل أن يصل فِراشه ويخلع حذاءه، فقد نام على كنبةٍ قديمةٍ وضعتها أمُّه في ساحة البيت تحت شجرة التوت. استيقظ فزعاً والحمار براط يشدُّه من نعله بأسنانه الكبيرة. سحب جود ساقه ونهض وهو يتراجع إلى الخلف متعثِّراً.

«شو بدَّك؟» قال جود وهو يتصبَّب عرقاً، «بدَّك تاكل توت كُل على راحتك».

«ما جيت آكل، صحِّيتك من النوم لأحكي معك بموضوع مهم».

«وهيك بيصحُّوا الواحد من النوم!؟»

«وليش هيك الواحد بينام بالصُّرماية[٤٣]!؟»

«إنتَ آخر واحد يا براط بيحكي عن النوم بالصُّرماية، ليش عُمرك شَلَحت من رِجلك[٤٤]!؟» ثم التقط جود أنفاسه وقال: «شو هالموضوع المهم اللِّي بدَّك تحكي عنُّه؟»

«موضوع زيارة أبوك».

«شو عرَّفك؟» سأل جود باندهاشٍ شديد.

«أبو ريشة...».

«يلعن أبو ريشة ويلعن ثرثرته»، صاح جود بصوتٍ عالٍ.

«مع مين بتحكي يمَّا؟» صاحت أم جود من داخل البيت وهي جالسةٌ في غرفة الضيوف مع عمَّته خديجة، ثم جاء صوتها وهي تقول لعمَّته: «شايفة الولد، من كُتُر قهرُه على منع الزيارة صار يحكي مع حاله ويشكي همُّه للشجر والحجر!»

ابتسم جود بسماعه كلمات والدته، فأخفض صوته موشوشاً الحمار براط في أذنه: «شو بدَّك تحكي عن زيارة أبوي؟»

---

(٤٣) الحذاء

(٤٤) شلحت من رجلك: خلعت حذاءك

«اليوم حرثت في خلّة العجوز[٤٥] وحكيت أنا وإم رومي في الموضوع بعد ما عرفت بمحاولتكم الفاشلة».

قاطعه جود قائلاً: «المحاولة مش فاشلة، المحاولة ناقصة. بعدين مين هاي إم رومي؟»

«إم رومي زيتونة عمرها ألف وخمسميّة[٤٦] سنة، قالتلي حلّك عندها».

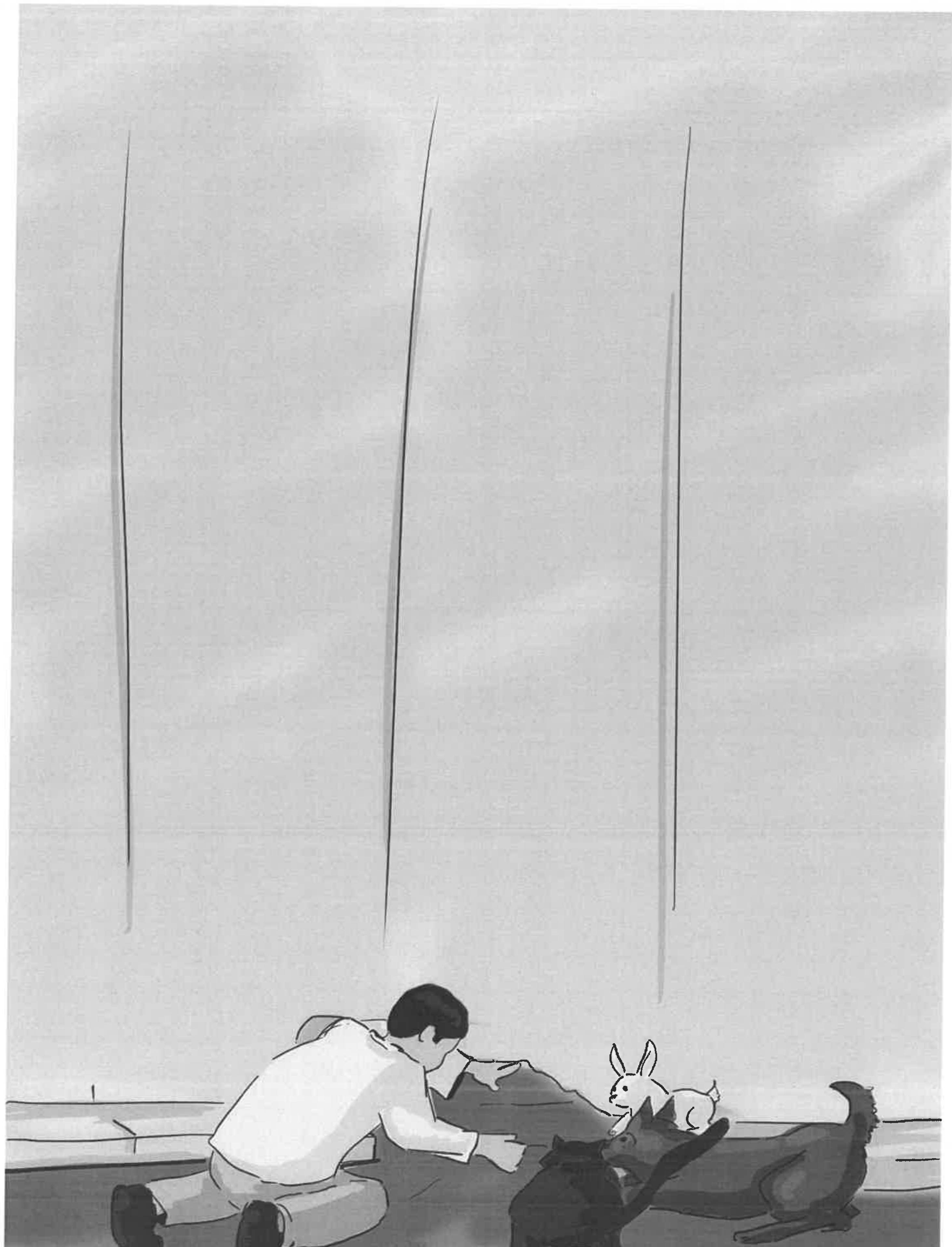
«كيف؟»

«ما بعرف، ما حكتلي، بس قالت لازم يزورني ضروري».

---

(٤٥) اسم منطقة

(٤٦) خمسمائة



في اليوم التالي، وفي الطريق إلى خلَّة العجوز، حيث انتصبتْ مجموعةٌ من أشجار الزيتون التي تطلُّ على الشارع الرئيسي المؤدي إلى مستوطنة جلعاد، امتطى جود ظهر براط الذي لم يتوقف طوال الطريق عن معاتبته لأنَّه لا يعامله كصديقٍ مقرَّبٍ مثلما يعامل أصدقاءه الآخرين من الحيوانات، فالجميع، كما قال براط، «من عصافير وأرانب وكلاب وقطط بتدخل بيتك وبتقعد حتى ع سريرك، إلا أنا ببقى واقف برّات[٤٧] البيت، وما دعيتني ولو مرَّة وحدة أدخل جوّه[٤٨]، ومع هيك ما تخلِّيت عنك».

حاول جود أن يشرح له السبب دون أن يحرجه: «إنتَ عارف بيتنا صغير وما بيوسع للجميع».

صاح براط وتوقف عن السير: «أي جميع! غالباً بكون لحالي».

«هوَّا حالك شوي يا براط!؟ لو دخلت البيت ما بِظلّ مكان لا إلي ولا لإمِّي!»

---

(٤٧) خارج

(٤٨) الداخل

قال جود ذلك دفعةً واحدةً وبفجاجةٍ، معتمداً على تجاربه السابقة مع براط الذي لا يفهم بالتلميح، وإنَّما بالحديث المباشر.

«هذا الحجم»، قال براط وهو ينفض جسده مُسقطاً جود عن ظهره، «بِحمِل المونة وبيوصِّلها لبيوت الناس، وحبايبَك شو فايديتهم[٤٩] غير الزّينة وكثرة الكلام، اليوم اللِّي مَفيش[٥٠] فيه نقل حجارة وشامينتو[٥١] بكون يوم حراثة بالوعر[٥٢]. هالكتاف[٥٣] حرثت أراضي البلد كلها، ونقلت الأكل لأهل القرى اللِّي حوالينا. ما بدِّي أحكي أكثر من هيك، حملت مونة[٥٤] وسلاح للمطاردين، ومشيت طرق حتى حمار بعجز عنها، والنتيجة؟ صار أبو ناب ثقة أكثر مني!؟»

قال جود وهو يحاول تهدئته:

«الموضوع مش موضوع ثقة يا براط، الموضوع موضوع حجم، إنتَ لا بتقدر تطير زي أبو ريشة، ولا تمُرّ من فتحة في

---

(٤٩) فائدتهم

(٥٠) الخالي من

(٥١) إسمنت

(٥٢) الخلاء

(٥٣) هذه الأكتاف

(٥٤) مؤونة

الجدار، ولا حتى تحفر تحته»، ثم اقترب من براط محاولاً إنهاء الحديث بامتطائه، فنفض براط ظهره مرَّةً أخرى وقال:

«امشِ مشي، حالك إنتَ الثاني ماهوش[55] شويِّة، بعدين وصلنا، وأنا مش قادر لا أحملك ولا أحمل غيرك».

أدرك جود في هذه اللحظة أنَّ براط قد جاءته «الحرنة»[56] ولا مجال لإقناعه، فاختصر وسار إلى جانبه بضع عشرات من الأمتار، إلى أن وقفا أمام شجرةٍ عجوز، جذعها عريضٌ كثُرَت عليه النُّدب والتشقُّقات، وكأنَّه جسد محاربٍ قديمٍ. تحسَّسه جود وهو يلامس النُّدب، أدخل كفَّيه الصغيرتين بين الشُّقوق فَرَوتْ له حكايتها، فلكلِّ ندبةٍ قصة، ولكلِّ شقٍّ رواية، الكثيرون حطبوا من غصونها، وأكلوا من ثمارها، واختبأوا في تجويف جذعها الذي أطلَّ جود بداخله فاعتقده بئراً بلا قعرٍ من شدَّة الظُّلمة فيه.

جميعهم أخذوا منها وأعطوها إلَّا المستوطنين، فهم لا يريدون ثماراً ولا حطباً، وإنَّما يريدون اقتلاعها من جذورها.

قبل أن تنطق أم رومي بكلمةٍ واحدة، سمع جود صوت جذورها تتحرَّك وأغصانها تفرقع كأنَّها تتجبَّد[57] وتحاول شدَّ

---

(٥٥) ليس

(٥٦) أحرنَ: توقف عن الانقياد أو العمل

(٥٧) تتمطّى

عضلاتها. أنصت جود محاولاً فهم اللغة، فهذه هي المرَّة الأولى التي يخاطب فيها شجرة.

«اقترب منِّي حتى تسمع وتفهم ما سأقول»، قالت أم رومي بصوتٍ عريضٍ وعميقٍ، وكأنَّه آتٍ من جذورها الضاربة في أعماق الأرض.

«أنتم البشر قد تسمعون، لكنَّ فهمكم غير مضمون، فكما تزرعون تقلعون، وتعتقدون أنَّ الحيوانات أقرب منَّا إليكم، وتمتلك تجربةً وعقلاً أقرب لعقولكم، والتجربة حياة، فكم تعيش الحيوانات؟ هل عاش حيوانٌ مثلي ألفاً وخمسمائة عام؟ بل كم تعيشون أنتم!؟ تعيشون وتموتون وتعتقدون أنَّ عُمر الشجر بأعماركم. أنا في ظلِّي استظلَّتْ شعوبٌ، وفي زماني انهارتْ ممالك، واختبأ في جذعي هاربون من السلطان، وأكل من زيتوني وزيتي رُسُلٌ وحُجَّاجٌ ومسحوا به على أجساد الرُّضَّع، وأضاؤوا به بيوتهم وبيوت الله. في الزيت سرٌّ لم يمنحه أجدادي لأحدٍ سوى لطفلٍ قبل أكثر من ألفي عام، فمسح الطفل الزيت بكفِّه بقلبٍ طاهرٍ على وجوه المرضى فشفاهم، وقلبك يا جود طاهرٌ أبيض كالثلج، فقد سمعتُ صرختك وأنت تنادي أباك، صرخةً مزقت فيَّ اللِّحاء، لا شيء أطهر من صرخة طفلٍ مقهورٍ ينادي أباه، واليوم أمنحك سرِّي لتشفي أهلك والناس من وباء العصر، وليس

أمامنا الكثير من الوقت، فهم يريدون اقتلاعي من هذه الأرض كما يريدون اقتلاعك من قلب أبيك».

قال جود متلعثماً والدمع ينهمر من عينيه:

«مين؟ كيف؟ مش راح نسمح لهم يخلعوكِ من أرضك».

واصلت أم رومي حديثها وقالت:

«لا فائدة من هذا الآن، جرَّافاتهم قد تم تجهيزها بالقرب منَّا، وسيصلني الدور خلال يومين، لا وقت الآن لأفكارٍ جديدة. أصغِ لما سأقوله جيداً، غداً عند المساء تنزل إلى جذعي وتختبئ فيه حتى يقتلعوني ويضعوني في سيارتهم، وتبقى دون حراكٍ إلى أن نصل، فقد علمت بأنَّهم سيغرسونني في مدخل مدينة العفولة في جزيرةٍ وسط الشارع». صمتتْ أم رومي قليلاً، ثم قالت بحزنٍ: «سأصبح بعد كلِّ هذه السنين شجرةً للزينة!»

***

عاد جود إلى بيته جائعاً متعباً، تناول عشاءه من الزيت والزيتون والقليل من الجبن والخضار. كان شارد الذهن يفكر في كلِّ ما سمعه، تناول بإصبَعَيه حبَّة زيتونٍ وتأمَّلها وهو يحدِّث نفسه: «شو بدُّه يكون سرِّ الزيتون يا إم رومي؟!» فأمُّ رومي لم

تكشف له السرَّ بعد، واكتفت بالقول: «ظاهر السرِّ إخفاءٌ وباطنُهُ إظهارٌ»، وهو ما حيَّره أكثر، فهذه الجملة لم تساعده في الكشف عن السرِّ، بل زادته تعقيداً، وظلَّ محتاراً غارقاً في التفكير إلى أن جاءه صوت أمه:

«مين إم رومي يمّا؟»

أربكه السؤال للحظةٍ فأجابها:

«ختيارة[٥٨] لقيتها في الطريق».

فقالت أمُّه باستهجانٍ:

«أي ختيارة؟ فش في بلدنا ختيارة بهاظا الاسم!»

«مش من بلدنا، من بيت دجن»، ثم وجدها فرصةً ليبني لنفسه قصةً ساترةً تبرِّر غيابه عن البيت في اليوم التالي الذي سينام فيه داخل جذع الزيتونة، فواصل حديثه قائلاً: «إم ولد من أولاد صفِّي، حكتْ لي أزورهم في البيت، ويمكن أبات[٥٩] عندهم ليلة ليلتين».

لم تعلِّق أم جود على موضوع الزيارة والمبيت خارج المنزل، وبدت شاردة الذهن تحاول نبش ذاكرتها لتجد في سجلِّها ذكراً لأم رومي، وقبل أن تستفيق من شرودها الذهني وتكتشف أن لا

---

(٥٨) امرأة عجوز

(٥٩) أبيت

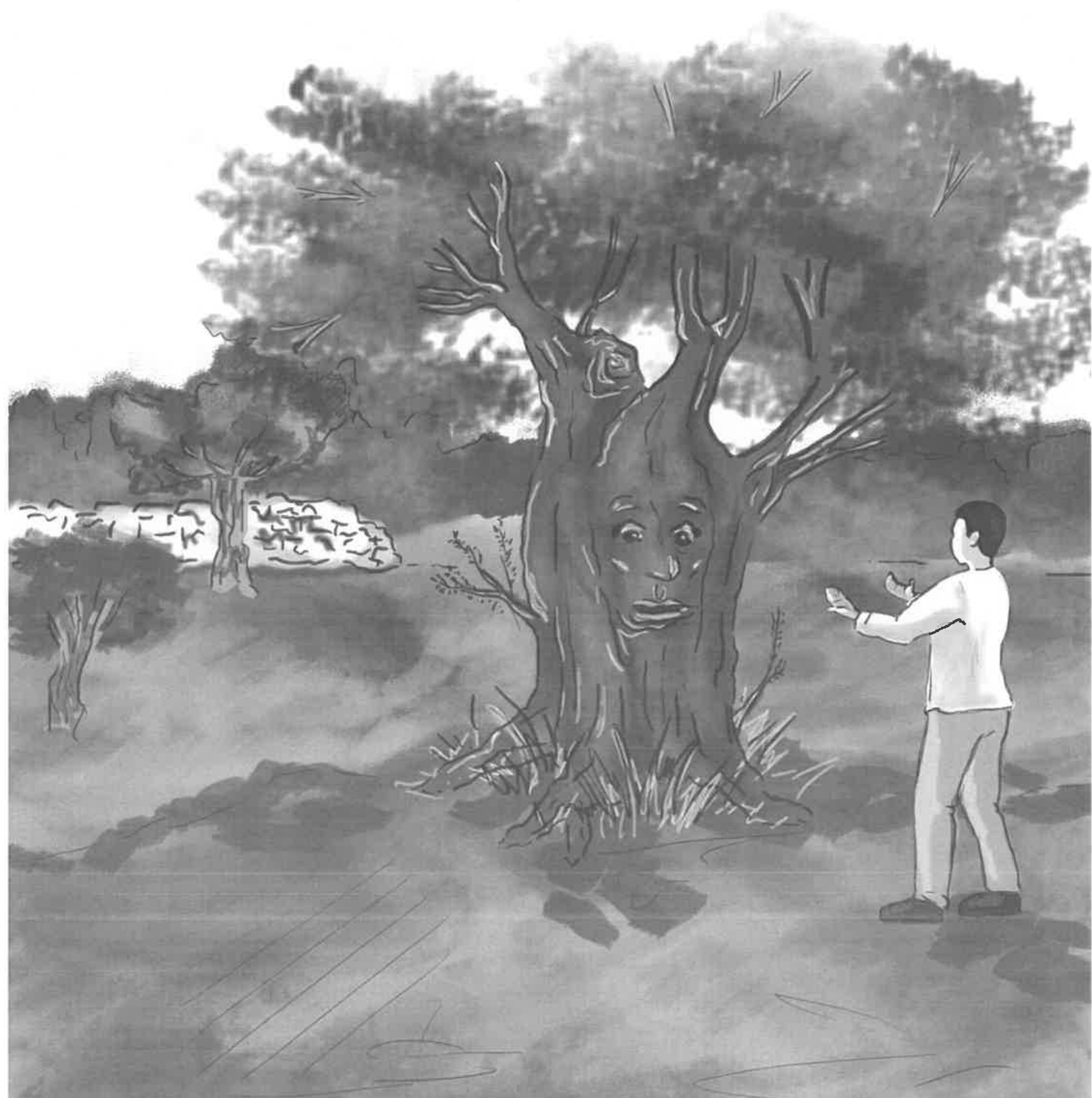
وجود لهذا الاسم، نهض جود حتى لا يتعرَّض للمزيد من الأسئلة، وقال إنَّه متعبٌ وسيأوي إلى فراشه مبكراً.

حاول جود النوم فعلاً، لكن عبثاً، ظلَّ يتقلَّب في فراشه وهو يفكر بما قالته له أم رومي. أسئلةٌ كثيرةٌ دارتْ في رأسه، أسئلةٌ كلَّما غاص فيها وحاول الإجابة عليها حيَّرته أكثر، «فما هو ذاك السرُّ الذي سيشفي أهلي والناس؟» قال لنفسه، «وما علاقة شفاء الناس والأهل بزيارة والدي؟!» كلُّ ما أراده جود هو زيارة والده، لا أن يصبح مداوياً أو طبيباً. «ما هو مرض العصر هذا الذي تريدني أم رومي أن أشفي منه الناس!؟» سأل جود نفسه وأجاب متسائلاً: «أهو السجن؟!» لكن ليس كلُّ الناس سجناء، والسجن ليس اختراع العصر، بل إنَّه موجودٌ منذ أزمانٍ سحيقة، فما هو مرض العصر إذن؟

لم تكن هذه هي الأسئلة الوحيدة التي حالت بين جود والنوم، فهي مجرد أسئلةٍ تحتاج إلى إجابات، لكنَّ الأسئلة التي تحتاج لقرارات هي التي أرهقته وأنَّبت ضميره، فهل يشارك أصدقاءه السرَّ؟ وهو ليس سرَّه، وإنما سرُّ أم رومي التي قد تغضب منه ويخسر ثقتها. لكنَّه فكر أيضاً في أصدقائه الذين عرَّضوا حياتهم للخطر من أجله أثناء محاولتهم التي لم تكتمل، هل يدعوهم جميعاً للاختباء داخل الجذع؟ «والسمُّور؟» قال

لنفسه، «هل أعبر الجدار دون اصطحابه معي؟ فهو محرومٌ مثلي تماماً من لقاء أمه السريعة وإخوته شلهوب وحبوب»، ثم عاد للتفكير في أم رومي: «كيف سأقنعها بكلٍّ هذا؟»

ظلَّ جود يقلِّب هذه الأسئلة في رأسه إلى أن غطَّ في النوم منهكاً دون أن يصل لإجاباتٍ شافية.



لم يكن جود في صباح اليوم التالي قد قرَّر بعد إن كان سيشارك أصدقاءه في عبور الجدار برفقة أم رومي أم لا، لكنَّه دعاهم لمرافقته إلى خلَّة العجوز، وترك الأمر مفتوحاً حتى يسمع رأيها على أمل أن يقنعها، فهو يميل لأن لا يخفي عنهم شيئاً، ويرغب في أن يشاركوه الرحلة.

كان براط قد عاد ومعه أبو ناب والسمُّور والخنفور وأبو ريشة، فقد طلب منه جود أن يذهب لدعوتهم جميعاً، لكنَّه رطن بضع كلماتٍ غير مفهومة، واعتقد جود للحظةٍ بأنَّه على وشك الإحران وأنَّه لن يفعل.

ساروا جميعاً نحو خلَّة العجوز، ووصلوا إليها قبل مغيب الشمس بقليل. وقفوا يتأمَّلون المشهد الذي تبدَّى لهم بذهول، كانت جرافات المستوطنين وآلياتهم أجساداً معدنيةً صفراء هامدةً دون حراك، وقد خيَّم على المكان صمت القبور بعد انتهاء يوم من الضجيج والحفر مزَّقت به هذه المخلوقات جسد الأرض وقطَّعته إرباً، فالتهمت كفُّ الحفار، التي بدت ككفِّ مخلوقٍ خرافيٍّ، أراضي الخلَّة، وعضَّتها بأنيابها الضخمة فاجتثَّت أشجار الزيتون

من جذورها، وأزالت معها الطبقة الترابية الحمراء وكأنَّها لحم الأرض، فبانت طبقاتٌ بيضاء من الجير الجوفي مشكلةً دهنها أو عظامها المهشمة التي كُشِفت للريح، فبدا المشهد مؤلماً. كانت تضاريس المكان قد شوِّهت وتغيرت تماماً، ولم يكونوا قادرين على تحديد معالمها. تلفَّت جود يميناً ويساراً، وحاول تجميع بقايا صور الخلَّة التي تشظَّت ليحدِّد موقع أم رومي. ظنَّ للحظةٍ أنَّه تأخَّر، وأنَّهم اجتثُّوها كباقي الأشجار ونقلوها على ظهر شاحناتهم.

«هيَّاتها[٦٠] هناك فوق»، صاح براط كاسراً الصمت الذي ساد، وسار في المقدمة وهو يقودهم إلى الموقع الذي أشار إليه.

«مرحبا أم رومي»، بادر جود بإلقاء التحية.

«أهلاً بكم جميعاً»، ردَّت أم رومي.

استنتج جود من تحيَّتها للجميع بأنَّها راضيةٌ عن حضورهم، فتشجَّع كي يطرح الموضوع عليها مباشرةً، لكنَّها واصلت القول:

«أعلم أنَّكم مذهولون من المشهد، لكن لا وقت للانفعال الآن، علينا أن نبدأ العمل».

فشجَّعته جملتها الأخيرة على الدخول بالموضوع دون مقدمات: «شو رأيك يا إم رومي إنُّه صحابي يرافقوني؟»

---

(٦٠) ها هي

«وما رأيك أنت؟» قالت أم رومي.

«السرّ مش سرِّي حتى أقرر»، قال جود وهو ما زال يأمل في قرارة نفسه بأن توافق.

«بمجرد أن تعرفه سيصبح سرَّك، وسيصبح القرار لك».

«بس بعدي[٦١] ما بعرف السرّ حتى يصير سرِّي»، أجابها جود، وقد بدا عليه السرور بعد أن أدرك أنَّه ضَمِنَ اصطحاب أصدقائه معه.

«قريباً ستعرفه، لكن عليك أن تدرك تماماً بأن السرَّ معرفة، والمعرفة تمنح مالكها قوةً، والقوة خيارات، وأنت بهذا المعنى حُرّ».

قال جود بفرحٍ طفولي: «يعني حر مثل أبو ريشة بطير وين ما بدِّي؟»

«أبو ريشة ليس حراً»، قالت أم رومي، «أبو ريشة يملك جناحين، ولكنَّه لا يملك الخيار لاستخدامهما إلا للطيران».

«وأنا إلي رجلين وما بقدر أختار إلَّا أمشي عليهم».

قالت أم رومي: «أنت تملك القدرة على التفكير، لديك عقل».

---

(٦١) ما زلت

«ممكن أطير وأحلِّق بعقلي؟»

«بالتأكيد»، قالت أم رومي، ثم تابعت:

«بشرط أن تدرك كنه السرِّ وجوهره».

قال جود: «ممتاز! أنا بختار يرافقني جميع أصدقائي».

«وهذه أول قفزةٍ لك من فوق الجدار. الاختيار حرية، ولكن عليك أن تدرك أيضاً أنَّ الحرية مسؤوليةٌ، والمستوطن الذي يخلعنا من أرضنا اختار بحريةٍ».

تعانق الجميع واحتضنوا جذع أم رومي التي اعتبروا ردَّها موافقةً مباشرةً على مرافقتهم جود، باستثناء براط الذي استمرَّ في التهام العشب الأخضر، ووافق بصعوبةٍ أن يأخذ معهم ومع أم رومي «سيلفي». وعندما سأله جود إذا كان سيرافقهم، طلب منه أن يعفيه من المهمة، وقال إنَّ لديه مهاماً كثيرة، كالحراثة ونقل الماء لبعض الأشتال الجديدة التي زرعها أبو عمشة الأسبوع الماضي، وأنَّ هناك أموراً لا أحد سواه قادرٌ على إنجازها، ملمِّحاً لما سبق وقاله لجود بشأن أصدقائه من حيوانات «الزينة» التي لا فائدة منها، وعندما ألحَّ عليه الجميع كي يرافقهم، قال بنبرةٍ حازمةٍ وهو ما يزال يلتهم العشب الأخضر: «معلِش، برجوكم تحترموا قراري».

دخل الجميع جذع أم رومي بعد أن غادرهم براط عائداً إلى

القرية، وما أن بدأت السهرة حتى كان الخنفور وأبو ريشة وأبو ناب قد غطُّوا في النوم، وبقي السمُّور يقظاً يحاول إدراك ما يدور بين أم رومي وجود من حديثٍ بدأه جود بأسئلةٍ طرحها عليها، وعندما بدأت أم رومي بالحديث لم تجب عن أسئلته مباشرةً، مما دعاه للقول بأنَّه مرتبكٌ ويجد صعوبةً في فهم ما تقول، فأجابته بأنَّه سيفهم كلَّ شيءٍ بالتدريج وبالتجربة، ثم قالت:

«حتى تدرك ما أقول وتعرف كيف ستتصرف في المستقبل، لا بد وأن تعرف ما الذي جرى في الماضي، فلكلِّ عصرٍ وباؤه، ولكلِّ وباءٍ دواؤه، وسرُّ الدواء كان دوماً، وما زال، في الزيت. في العصور الغابرة كان الجوع والفقر وباء العصر، فكانت معجزة جرَّة الزيت التي لا ينضب زيتها هي الدواء، وفي الحقيقة لم تكن هناك معجزةٌ ولا جرة زيتٍ لا ينضب زيتها، فلا وجود لشيءٍ لا ينضب، ولكنَّ السرَّ هو أنَّه كان هناك رجلٌ صالحٌ استخدم السرَّ في الزيت، وهو القدرة على الاختفاء عن أعين الناس، وتسلَّل خلسةً إلى بيت السلطان وأخذ من مخازنه زيتاً كان قد استولى عليه عنوةً وحرم الناس منه، وملأ الرجل الصالح جرة فقراء القوم، فحسبوها جرةً معجزةً لا ينضب زيتها. وفي عصرٍ آخر، حين تفشَّت أمراضٌ معديةٌ ومات الأطفال الرضَّع بالآلاف، لم يكن زيتنا دواءً للأمراض، ولكن إخفاءً لها، فالزيت سرُّه الإخفاء،

فأخفى المرض ولم يشفِه».

«لكن يا أم رومي الناس تعافوا من المرض، فكيف ممكن يكون مش دواء؟» قال جود الذي بدا لأم رومي أنَّه أمسك بطرف الخيط.

فأجابته: «سرُّ الزيت الإخفاء، فهو يملك القدرة على إخفاء البشر والحيوانات والأمراض وأي شيءٍ نمسحه به. الرجل الصالح اختفى ليفرغ جرَّة السلطان ويملأ جرَّة الفقراء، فاعتقدوا أنَّ المعجزة في الجرة وفي الزيت الذي لا ينضب، تماماً كالذين اعتقدوا أنَّ الزيت هو الذي شفاهم من المرض. المرض اختفى من المسح بالزيت على الجسد المريض، والزيت لا يشفي بالضرورة».

قال جود وقد بدا عليه التوتر:

«لحدّ الآن مش قادر أفهم الفرق!»

«قلت لك ستفهم بالتدريج وبالتجربة»، قالت أم رومي وهي تحاول تبديد توتره، ثم واصلت حديثها وقالت: «تخيَّل أنَّ الزيت يملكه لصٌّ كالذي سيقتلعني من أرضي ليستخدمه لإخفائي أو إخفائك أو حتى لإخفاء القرية جميعها، فهل يصبح الزيت في هذه الحالة دواء؟»

قال جود: «بالتأكيد لأ، رايح يكون لعنة على أهل البلد».

ثم واصلت أم رومي وقالت:

«إذن، يغدو الزيت دواءً إذا اتَّخذت القرار الصحيح، ويصبح خيراً إذا كان قلبك عامراً بالخير، وشراً إذا كان الشرُّ يسكنه».

كرَّر جود وقد أدرك الفكرة تماماً، محاولاً أن يتقدَّم مع أم رومي في ردِّها على أسئلته: «يعني لازم آخذ القرار الصحيح حتى يكون الزيت علاج لوباء العصر. طيب شو هو وباء العصر؟ بعدين كل اللِّي بدِّي ياه هو إنِّي أزور أبوي».

«وباء العصر هو فقدان الحرية»، قالت أم رومي، «ملايين البشر هاجرت من الجنوب إلى الشمال بعد أن فقدت حريَّتها، هاجر الناس عندما انتشر الجوع، وهاجروا عندما تفشَّت الأوبئة، ويهاجرون اليوم لأنَّهم يفتقرون إلى الحرية، ووالدك أسيرٌ فاقدٌ لحريَّته، ولفقدان الحرية ظاهرٌ وباطنٌ، السجون والحواجز والجدار والأسلاك الشائكة عند الحدود على أنواعها هي ظاهر فقدان الحرية، أما باطن الوباء فهو فقدان العقل والأخلاق، أو ما يسمُّونه بـعمومية الجهل، وهو أخطر السجون وأشدُّها قسوة. ما سأملِّكك إيَّاه من سرِّ الزيت هو الإخفاء الذي سيمكنك فقط من علاج ظاهر وباء العصر، وعليك أن تبحث عن الزيت في عقلك وعلمك حتى تكتشف باطن السرِّ كي تعالج باطن الوباء».

في هذه اللحظة كان صبر جود قد نفد: «كيف بدِّي أعالج التخلُّف والجهل؟ أمسح بالزيت على رؤوس الجاهلين؟! يمكن

يختفي الجهل، بس مش ضروري يصيروا الناس حكماء».

«تماماً هذا ما أردتك أن تدركه»، قالت أم رومي بسعادةٍ وقد أيقنت أنَّ جود استوعب ما قالت، «لهذا عليك أن تبحث بالعلم وأن تجري التجارب والاختبارات حتى تكتشف باطن السرِّ، وهو الإظهار، أما ما هو الإظهار، فهذا ما عليك أن تكتشفه بعلمك».

كان شخير الخنفور في هذه اللحظة قد احتدَّ، فنبَّههم إلى الساعة التي بلغت الثانية صباحاً، كان الوقت قد مرَّ بسرعةٍ والجميع نيامٌ، بمن فيهم السمُّور الذي تمدَّد وأسند رأسه على بطن أبي ناب بعد أن كان قد يئس من إمكانية فهم ما قالته أم رومي لجود.

خلع جود حذاءه هو الآخر وتهيَّأ للنوم بعد أن صنع منه مخدةً أسند بها رأسه، لكنَّ أم رومي لم تنَم، وظلَّت يقظةً مع أخواتها الشجرات ينتظرن حلول الفجر، فامتصَّت في هذه الأثناء أكبر قدرٍ ممكنٍ من الماء وكأنَّها تودِّع أرض الخلَّة التي احتضنت جذورها مئات السنين، أو كأنَّها تريد أن يبقى في عروقها كمية كافية منه إلى أن تعتاد مذاق الماء في مكان غرسها الجديد.

استيقظوا على صوت الحفَّار الذي ضرب الأرض بكفِّه والْتَهم من التراب الأحمر لقمةً، فأحسُّوا داخل الجذع بأنَّ هزَّةً أرضيَّةً ضربت المكان، فجاءت ضربةٌ أخرى قريبة من الجذور، وفي

الضربة الثالثة كان كفُّ الحفّار قد دخل في أعماق الأرض وقطع بعض جذور أم رومي، ثم سمعوا أحدهم يقوم بربط جنزيرٍ غليظٍ حول الجذع، وارتفع الكفُّ في الهواء ساحباً معه أم رومي، وممزّقاً ما بقي من جذورها المطمورة في الأرض، ثم أنزلها داخل الشاحنة، وتولّى آخرون أمر تكتيفها بالسلاسل وكأنّها أسيرٌ يَخشَون هروبه وهو ينقل في عربة نقل الأسرى إلى السجن. كانت خمس شجراتٍ قد كُتِّفنَ في العربة، وأم رومي سادستهم. كان الجميع صامتاً داخل الجذع، ولم يتبادلوا الحديث طوال الطريق. وحين شارفوا على الوصول إلى مدخل العفولة، جاء نداء أم رومي كاسراً الصمت:

«جود، يا جود».

«نعم يا أم رومي».

«يبدو أنّنا شارفنا على الوصول إلى محطّتنا الأخيرة، ولا بدَّ من الفراق، فهل أنت مستعدٌّ لما سأقوله لك؟»

«نعم، مستعد»، أجابها جود.

«حيث تقف هناك درجتان، انزلهما وانظر في قاع الجذع».

نزل جود كما طلبت أم رومي، فإذ به يرى نجوماً بعيدةً بالكاد يلمع نورها، وكأنّها سماءٌ لا نهائيَّةٌ رُصِّعتْ بالنجوم وليلٌ دامسٌ يخيِّم من حولها.

«أترى هذه الأضواء الخافتة؟ هذه ليست نجوماً، إنَّما حبَّات جرجيرٍ سقطت في جذعي، فحافظت الظُّلمة على سرِّ الزيت فيها منذ مئات السنين، ولتحافظ على سرِّ الزيت يجب أن تحتفظ بالجرجير في مكانٍ مظلمٍ بعيداً عن نور الشمس».

«هذي كمية كبيرة، ليش ما قلتيلي كان جِبِت[٦٢] معي كيس».

«كلَّا، هذه ليست كميةً كبيرةً، ما ترى فيه لمعة ضوءٍ خافتٍ هو جرجيرٌ لم ينضج السرُّ فيه بعد، وسيبقى للأجيال القادمة. عليك أن تبحث عن الحبَّات التي انطفأت لمعتها تماماً وتجمعها، فهذه قد اختمر فيها السر».

قال جود وفي نبرة صوته حيرة: «بس في العتمة كيف بدِّي أجمع الحَبِّ اللِّي ما بيلمع؟ اللِّي ما بلمع ما بشوفه!»

«والذي تراه لا يخفي، والذي يخفي لا تراه، فعليك أن تبحث عمَّا لا تراه».

انحنى جود ومدَّ كفَّه في قاع الجذع، وكلَّما دفعها وحمل فيها حبَّاتٍ تلمع أعادها إلى القاع وأزاحها جانباً، أما الحبَّات التي لا يراها ولكنَّه يحسُّها بيده أدخلها إلى جيبه، وظلَّ يفعل هذا إلى أن ملأ جيوبه منها، ولم يعد يخرج في كفِّه مثل هذه الحبَّات

---

(٦٢) أحضرت

المنطفئة.

قالت أم رومي بعد أن أطفأ السائق محرك العربة: «والآن وصلنا محطتنا الأخيرة، خذ ثلاث حبَّاتٍ واعصر زيتها بكفِّك وامسح بها أجساد أصدقائك وجسدك، واخرجوا من جذعي باطمئنانٍ تامٍّ، فلن يراكم الآن أحد».



وقف جود وأصدقاؤه بالقرب من بوابة السجن ينتظرون فرصة دخول إحدى عربات نقل الأسرى، ليتمكَّنوا من التسلُّل إلى الداخل، فكونهم غير مرئيِّين ويملكون القدرة على الاختفاء لا يؤهلهم من تسلُّق السور العالي، ولا بدَّ من الدخول عبر البوابة الرئيسية. خلال انتظارهم شاهدوا أهل الأسرى القادمين لزيارة أبنائهم في السجون وقد تجمَّعوا عند شباك تسليم بطاقات الهوية، بعضهم أطفالٌ، وغالبيتهم نساءٌ ورجالٌ، كان من بينهم رجلٌ طاعنٌ في السن وامرأةٌ عجوزٌ تتكئ منهكةً على عكازها الذي أشارت به نحو كيسٍ من الملابس كانت قد أحضرتها لابنها، وتقول بائسةً:

«وهظول وين أروح فيهن؟ أعاود أرجِّعهن مرَّة ثانية معاي عالبيت؟»

لم تكن العجوز توجِّه حديثها لشخصٍ معين، وإنَّما كانت تشكو همَّها لنفسها بعد أن منعوها هي وزوجها من زيارة ابنهم بحجَّة معاقبتهم لمدة ثلاثة أشهرٍ بما يسمّى منع زيارات، وحين كانوا قد سمحوا له بالزيارة كان الجيش يحجب عن والديه تصريح الدخول لأسبابٍ أمنية. اقترب جود من تجمُّع الأهالي حول العجوز

التي يحاولون مواساتها، عرف البعض منهم، فهم من أهالي قريته، وفي هذه اللحظة كادت مشاعره أن تودي به للانكشاف أمام الجميع، حين سمع العجوز تقول بمرارةٍ وحزنٍ شديدين:

«طيِّب أنا بدهمِّش(٦٣) إيزوروني(٦٤)، والختيار؟ إجر(٦٥) برَّا وإجر في القبر، وأمنيته يشوف ابنه قبل ما يموت! يا حسرتي! مش حرام؟ والله يا ربِّي حرام».

أراد جود أن يمنح العجوز وزوجها بعض الزيت ليتمكَّنا من زيارة ابنهما دون أن يلاحظهما أحدٌ من السجانين، وتذكر ما قالته أم رومي بأنَّ الكمية محدودةٌ وعليه أن يستخدمها أفضل استخدام، ومع ذلك همَّ جود وسار نحوهما قاصداً مساعدتهما، فقفز أصدقاؤه واعترضوا طريقه، فيما كان أبو ناب يشدُّه بقوةٍ إلى الخلف، بعد أن عضَّه من أسفل بنطاله وسحبه، إلا أنَّ مشهد العجوز شدَّ جود وجذبه نحوها بقوةٍ أكبر، فضاعف أبو ناب من قوَّة سحبه ليمنعه من ذلك، ولم يكفَّ جود عن المحاولة إلا حين قال له الخنفور إنَّ منح العجوزين الزيت مضيعةٌ للوقت، فلو دخلا ووصلا قاعة الزيارة ستبقى المشكلة في أنَّ ابنهما لن

---

(٦٣) لا يريدون

(٦٤) يسمحون لي بالزيارة

(٦٥) رِجل

يصل القاعة، فهو ممنوعٌ من الزيارة، الأمر الذي سيزيدهما حسرةً وحزناً.

فتحت بوابة السجن لدخول حافلة نقل الأسرى، هرولوا جميعهم خلفها وعبروا البوابة الأولى، ثم ساد الظلام لدقائق بعد أن أغلقت لتمرَّ الحافلة ومرافقوها للتفتيش، ثم فتحت البوابة الداخلية، فساروا وهم يتلفَّتون حولهم غير واثقين تماماً من أنهم غير مرئيين وأنَّ لا أحد يراهم بعد أن مسحوا أجسادهم بالزيت. اقترح أبو ناب أن يتعقَّبوا السيارة وطاقم السجَّانين الذي يرافقها، وما إن دخلوا عنبراً كبيراً كانت قد توقفت فيه الحافلة، حتى شاهدوا كلبين مربوطَين بحزامين تدلَّيا من عنقَيهما وشُدَّا بقوةٍ لذراع السجان الواقف بجانب الحافلة، وقد جنَّ جنونهما وشرعا بنباحٍ هستيريٍّ في اللحظة التي دخل فيها جود وأصدقاؤه العنبر. ظلَّ الكلبان يحاولان الإفلات، فيما السجَّان يواصل كبحهما مستغرباً سلوكهما. كان أبو ناب أول من أيقن خطورة الموقف، فشدَّ جود مُبعداً إياه عن مخالبهما التي لوَّحا بها، وقال له إنَّ الزيت لا يعطِّل حواس الحيوانات، خصوصاً الكلاب، ومن خبرته السابقة فإنَّ هذه الكلاب ليست كلاباً عادية، فهي مدربةٌ على الهجوم والافتراس، ويجب عليهما التصرُّف بسرعةٍ قبل أن يفقد السجَّان سيطرته عليهما، فانسلُّوا داخلين خلف ضابط حمل في

يده اليسرى رزمةً كبيرةً من القيود، فيما حمل في اليمنى مجموعةً من الملفات. ألقى رزمة القيود على الأرض بمجرد دخوله قاعةً واسعةً أُحيطت بخمس زنازين، وهي زنازين انتظارٍ يحتجز فيها الأسرى إلى حين ترحيلهم إلى سجونٍ أخرى، فسار جود بخطىً سريعةٍ من خلال الطاقة المفتوحة في الباب نحو الزنزانة الأخيرة التي لاحت له ظلال أسرى في داخلها، فقفز أصدقاء جود الأربعة واعترضوا طريقه دافعين به إلى الخلف، وقالوا سوياً بصوتٍ منخفض: «انجنّيت!»

«لأ، منجنّيتش[٦٦]»، قال جود، «بس بدّي أطُل في الزنزانة بجوز[٦٧] أعرف حدا منهم وأسأل بأي قسم موجود أبوي»، ثم همَّ بمواصلة سيره فداس على قدم الخنفور الذي، قبل أن يطلق صيحته من شدة الألم، وجدهم جميعاً يضعون أيديهم على فمه ويخنقونه قبل أن يفضحهم.

كان الضابط قد وقف في هذه الأثناء في باب الزنزانة رقم ٥، وبدأ في قراءة أسماء الأسرى من الملفات التي يحملها للتأكد من وجودهم، ومن بين الأسماء التي قرأها ذكر اسم عماد أبو

---

(٦٦) لم أُجَنّ

(٦٧) ربما

حبلة الذي عرفه جود في الحال، فقد كان والده قد ذكر اسمه في إحدى رسائله لوالدته.

«وأنا بعرفه»، قال أبو ناب هامساً لجود، «كان ضابط في المخابرات، لما شاف البيوت بتنهدّ على روس أصحابها والبلد غرقت بالدم، ترك الجهاز وهرب وهرَّبني معاه».

قرَّر جود أن يسأل عماد مباشرةً عن رقم القسم الذي يتواجد فيه والده، فلجأ لحيلة المناداة من زنزانةٍ أخرى كما لو أنَّه أسيرٌ من قسمٍ آخر منقولٌ إلى أحد السجون، أو معتقلٌ وصل حديثاً. ابتعد عن زنزانة عماد ببضع زنازين، وقبل أن ينادي قال له أبو ناب هامساً:

«أنا بسأله».

«ليش مش أنا؟»

«صوتك صوت ولد».

«شو يعني؟»

«أي هوِّي في أولاد في السجن؟» ردَّ أبو ناب بلهجة احتجاج على السؤال.

«آه في، في أكثر من مِتِين[٦٨] طفل، من بلدنا لحالها في ثلاثة».

---

(٦٨) مائتي

«بس مش في هذا السجن، وصوتي أخشن من صوتك».

ثم وقف أبو ناب، بعد أن سلَّم له جود بالأمر، وظهره ملتصقٌ بباب الزنزانة رقم ثلاثة، محاولاً إظهار صوته وكأنَّه آتٍ من داخلها، وقال مقلِّداً صوت رجلٍ بالغ:

«يا زنزانة خمسة، يا عماد، عماد أبو حبلة».

«مين معي؟»

«معك.. معك..»، تلعثم أبو ناب، فنكزه جود بخاصرته لحثِّه على الردِّ بسرعةٍ قبل أن يكشف الرجل خدعتهم، «معك سيف، سيف أبو ناب».

انفجروا جميعاً بالضحك لسماعهم اسم أبي ناب الجديد، وتعليق أبي ريشة الذي قال:

«كلب بناب واحد بصير سيف مرَّة وحدة! قول شفرة، قول سكينة فواكه، سيف!»

ولولا أنَّ جود نهرهم لانفضح أمرهم مع أبي حبلة الذي قال:

«عاشت الأسامي يا أخ سيف، بإيش[٦٩] ممكن أخدمك؟»

«بدِّي أسألك عن هالأسير، حضرتك بأي قسم؟»

«عن مين بدَّك تسأل؟ أنا في قسم خمسة».

---

(٦٩) بماذا؟

«عن أبو جود.. كميل.. كميل أبو حية».

«عندي في القسم».

«سلِّملي عليه، تذكر الاسم، قُلُّه سيف أبو ناب بسلِّم عليك».

«إن شاء الله، ولا يهمَّك، يِصَل».

طار جود من الفرح، فقد كان قلقاً من أن لا يجد والده في هذا السجن، فهو كثيراً ما كان يسمع والدته تتحدث بخيبة أملٍ بعد أن تكون قد حصلت على تصريح زيارة، وحتى بعد أن تكون قد وصلت باب السجن، تجدهم قد نقلوه إلى سجنٍ آخر.

ساروا جميعاً نحو الباب المؤدي إلى مداخل الأقسام، بينما تخلَّف عنهم الخنفور وهو يقفز غير قادرٍ على السير على قدمه التي داسها جود بالخطأ، وحتى لا يؤخِّرهم، اقترح جود أن يحمله، فقال أبو ناب: «أنا بحمله».

كانت الأبواب تفتح وتغلق بأمرٍ إلكترونيٍّ، والسجَّانون لا يكفُّون عن الحركة ولا يتوقفون عن طرقها، فسار جود ورفاقه مستغلِّين فرصة فتح الأبواب، إلى أن وصلوا مدخل قسم رقم خمسة.

كانت الساعة قد شارفت على الثالثة بعد الظهر. انتظروا دخول أو خروج أحد السجَّانين عند مدخل القسم كي يتسلَّلوا إلى الداخل، لكنهم عبثاً انتظروا والوقت داهمهم كثيراً، فقد

تبيَّن أنَّ سبب قلَّة الحركة عند المدخل هي حدَّة العقاب الذي فرضته إدارة السجن على الأسرى بحرمانهم من الخروج إلى الباحة الشمسية، بعد أن كانوا قد أعادوا وجبة الطعام احتجاجاً على منع بعضهم من زيارة الأهل. في هذه الأثناء وصل أحد السجَّانين وفتح باباً من الصفيح يؤدي إلى الفناء الخلفي للقسم حيث تطلُّ شبابيك الزنازين، ساروا خلفه وأطلَّ جود من شبابيك الزنازين فوجدها صاخبةً مليئةً بالحياة، بعض الأسرى تمدَّدوا في أسرَّتهم يقرأون الكتب أو يتصفَّحون الجريدة، وآخرون يشاهدون التلفاز، وآخر يكتب رسالةً لأهله. كان عدد الزنازين خمس عشرة زنزانة، فمرَّ جود عليها سريعاً ولم يلمح والده، فقرَّر أن يناديه ليحدِّد زنزانته. اقترب من الزنزانة رقم واحد ليبدأ منها، ودون أن ينبِّه أصدقاءه لما ينوي القيام به، كي لا يُفزعهم، صاح فجأة: «يا أبو جود، يا كميل أبو حية». نادى جود مرَّةً واحدةً، ثم أنصت ينتظر سماع الرد. سمع أبو جود النداء واقترب من الشباك مصدر الصوت. في البداية بدا مرتبكاً ولم يردَّ وظنَّ أنَّه يهذي، فالصوت صوت صبي، فهل يعقل أن يكون جود؟ «لكن، كيف لي أن أعرف؟» قال في نفسه، «فأنا لم أسمع صوته ولو مرَّةً واحدةً في حياتي! وما الذي سيأتي بجود إلى السجن؟!» ثم جاء الصوت مرةً أخرى، بعد أن كان قد ابتعد عن حافة الشباك مستبعداً أن

يكون جود هو المنادي:

«يا أبو جود، يا كميل أبو حية».

عاد أبو جود مسرعاً إلى الشباك، وأجاب بصوت عالٍ وهو يتشبَّث بقضبانه:

«مين معي؟»

«أنا جود يابا، جود».

«مين جود؟»

«جود ابنك يابا».

كان جود يجيب على أسئلة والده وهو يتنقَّل من شباك زنزانةٍ إلى آخر بحثاً عن مصدر الصوت، فوجد والده يقف بشباك الزنزانة الثانية عشرة والدموع تنهمر من عينيه.

«شو جابك[٧٠] عالسجن يابا؟»

«جيت أشوفك».

حتى هذه اللحظة كان صوت أبي جود ما يزال متماسكاً قادراً على الحديث بنبرةٍ عاديةٍ رغم دموعه، إلا أنَّه انفجر مرةً واحدةً ببكاءٍ شديدٍ عند سماعه كلمات ابنه، فاختنق بدموعه وقال بصعوبة:

---

(٧٠) أتى بك

«جيت تشوفني؟ في أي زنزانة إنتَ؟»

«أنا مش في زنزانة، أنا واقف قدَّامك[٧١] يابا، مش محبوس».

صاح أبو جود مرةً واحدةً:

«أنا انجنِّيت يا ناس! انجنِّيت وبسمع صوت ابني في راسي!»

تجمع من حوله الأسرى المقيمون في زنزانته محاولين تهدئته، فاختلطت أصواتهم بصراخ جود الذي نادى أباه باكياً مؤكداً له أنَّه جود، وأنَّه لم يُجنّ، فقطع صوت أحد الأسرى، وهو أعزُّ أصدقاء أبي جود واسمه نادر العامري، بعد أن صاح منادياً أبا جود الذي بدا وكأنَّه في مكانٍ آخر:

«يا أبو جود، اهدا، اهدا يا رجل، أنا كمان سمعت صوت جود، كلنا سمعنا صوت جود، جود موجود معنا مزبوط[٧٢] يا شباب؟»

فقال جود والدموع قد بلَّلت وجنتيه:

«يابا أنا هون عند الشباك، أنا مش مسجون، بس اهدا تحكيلك القصة من أولها».

كان من الصعب تهدئة أبي جود الذي لا يعرف كيف هبط ابنه من السماء، ففي لحظةٍ كان يضحك سعيداً بأنَّه سمع صوت

(٧١) أمامك

(٧٢) صحيح

ابنه لأول مرةٍ في حياته، وفي اللحظة الثانية صار حزيناً ومرتبكاً لوجود جود معه في السجن، وكان متوتراً لا يقوى على التقاط أنفاسه. أحد الأسرى جرَّ كرسياً وأجلسه بجانب الشباك، وناوله آخر كأس ماءٍ ليرطب حلقه، فبقي الكأس في يده، وجود يروي له ما جرى معه منذ أن تلقى قرار منعه الأمني الأخير من الزيارة، وحدَّثه عن محاولته عبور الجدار، وعن أصدقائه السمُّور وأبي ريشة والخنفور وأبي ناب الذين ساعدوه في محاولته الوصول إلى السجن، ثم حدَّثه عن براط، حمار دار أبي عمشة الذي عرَّفه على أم رومي، فسأله والده: «مين أم رومي؟»

قصَّ جود على والده حكاية شجرة الزيتون واقتلاعها من خلَّة العجوز، وسرَّ الزيت الذي ما إن تمسحه على جسدك حتى تصبح غير مرئي. كان رفاق أبي جود في الزنزانة كلُّهم آذانٌ، يلتهمون كلَّ حرفٍ وكلَّ كلمةٍ يتفوَّه بها هذا الصبيُّ الذي تناقضت مشاعرهم تجاهه، فلحظةً يسألونه أسئلةً تُظهر أنَّهم ما زالوا متشكِّكين بروايته حول الزيت الذي يمكن أن يخفي الناس، فيبدو لهم مجرَّد صبيٍّ حالم، ومن شدَّة شوقه للقاء أبيه اختلق هذه الرواية الخياليَّة، لكنَّهم سرعان ما يعاودون تصديقه بعد أن يكون أحدهم قد ذكَّرهم بأنَّه موجودٌ هنا ويتحدَّث إليهم، فينهالون عليه بالأسئلة التي كانت قبل لحظاتٍ ضرباً من الخيال. سألوه إذا كان

بالإمكان إخفاء كلِّ شيءٍ، بما في ذلك منشار قصّ حديد السجن، أو مفاتيح أبواب الزنازين. كان جود يجيبهم على أسئلتهم بهدوءٍ تامٍّ وبأدبٍ شديدٍ، دون أن يشعرهم بأنَّه يرغب بشدَّةٍ في سماع صوت والده الذي ظلَّ صامتاً ولم يشاركهم طرح الأسئلة. راقب والده الذي كان ما يزال يحمل كأس الماء ولم يرتشف منه قطرةً، ثم جاء صوته منادياً: «يابا...».

نظر أبو جود باتجاه الصوت، ورأى مجموعةً من الأوراق والصور المبرومة على شكل لفافةٍ ليكون بالإمكان إدخالها من بين قضبان الشباك:

«هذي صوري، صور احتفال منحي شهادة التفوق في العلوم، وهذي شهادة التقدير».

تناولها أبو جود وكفَّاه ترتعشان، ثم نظر إليها وهو يقول متلعثماً:

«شايفين[٧٣]؟ شوفوا[٧٤]»، وناولها لرفاقه الأسرى الذين تأملوا الصور ومرَّروها فيما بينهم، ثم واصل أبو جود وقال:

«هاظا هوّي، هاظا هوّي المستقبل».

كان نادر العامري صامتاً ولم يشاركهم الحديث ولا طرح

---

(٧٣) هل ترون؟

(٧٤) انظروا

الأسئلة، فصدمته لم تكن أقلَّ من صدمة أبي جود، لكنَّه ظلَّ متماسكاً ومحافظاً على هدوئه، يتأمل معهم الصور والأوراق، ثم سأل فجأة:

«قدّيش[٧٥] عمرك يا جود؟»

فأجابه أبو جود بسرعة:

«طناعشر[٧٦] سنة وست شهور وسبع أيام».

ابتسم جود وقال:

«بالزبط[٧٧]، زي ما قال أبوي».

ثم واصل نادر حديثه مع جود وقال: «إنت عارف شو مكتوب بالشهادة؟ مكتوب إنهم أعطوك فرصة تقديم امتحانات التوجيهي بدون ما تنهي الثانوي، يعني ممكن تنهي دراستك الجامعية قبل سن الثمنطاش[٧٨]!»

ثم نظر إلى أبي جود وقال: «ابنك عبقري يا كميل!»

أمسك كميل ذراع نادر وهزَّه وهو ينظر إلى صديقه مبتسماً، وقد سقطت دمعةٌ واحدةٌ يتيمةٌ متأخرةٌ في مآقيه،

---

(٧٥) كم؟

(٧٦) اثنا عشر

(٧٧) بالضبط

(٧٨) الثامنة عشرة

فبدت وعيونهما قد تعانقت وكأنَّها جملة، بل استمرارٌ لحديثٍ طويلٍ دار بينهما قالا فيه الكثير دون أن ينطقا بحرفٍ واحدٍ.

لم يكن جود حتى هذه اللحظة قد أبلغ والده بأنَّه برفقة أصدقائه، وهم، بدورهم، التزموا الصمت، وأتاحوا له فرصة العيش معه ولو للحظاتٍ قليلةٍ دون إزعاجه، فقال: «يابا، إنت عارف إني أنا مش لحالي هون؟»

«ولَّا مين معك؟» سأل أبو جود وقد تنبَّهت كلُّ حواسه، ينتظر رداً يأمل أن لا يكون صاعقةً جديدةً كمجمل ما سمعه حتى الآن.

«معي أصحابي»، أجاب جود وهو يحاول بذكاءٍ التدرج بالمعلومات حتى لا يكون وقعها حادّاً على والده.

«مين أصحابك؟» بدت نبرته وكأنَّها تقول أريد إجابةً سريعةً، فدفع بها جود مرةً واحدةً: «معي الأرنب السمُّور والعصفور أبو ريشة والبِسّ الخنفور وصديق إلك قديم، الكلب أبو ناب».

«مين أبو ناب؟»

أجابه أبو ناب وهو يخشى من أنَّه لا يتذكره:

«أنا يا أبو جود، مش ذاكرني؟ لقَّبتوني في الانتفاضة الأولى الشبح».

قال أبو جود وهو يتذكره بصعوبةٍ: «الصوت مش غريب

علي، آااه تذكرتك، ما تآخذني يا أبو...»، فقاطعه جود قائلاً:

«أبو ناب يابا، أبو ناب».

همس الخنفور في أذن جود طالباً منه أن يسأل إذا كان لديهم في الزنزانة ما يؤكل، فردَّ عليه أحد الأسرى بأنَّ القسم الآن مغلقٌ بسبب العقاب الذي أنزلته إدارة السجن بحقِّهم، ومن الصعب الحصول على الطعام، لكن في حوزتهم علبتان من التونة، وسألهم إذا كانت كافيةً، فقال الخنفور:

«مناح، من الصبح على لحم بطني، هاتهُم، كويسات».

سكبوا علبتيّ التونة، ودفعوا بها عبر القضبان إلى حافَّة الشباك، فالتهمها الخنفور وأبو ناب الذي شاركه الوجبة وتبيَّن أنَّه ليس أقلَّ جوعاً. ثم فتَّش الأسرى في سلَّة الخضار ليروا إن كان فيها ما يمكن أن يسدَّ السمُّور به رمقه، فوجدوا جزرةً وخيارةً ذابلتين دفعوا بهما عبر الشباك، فأعادهما السمُّور بعد أن تأمَّلهما قائلاً: «هاظا اللِّي بطعموكم ياه؟ الجوع أحسن!»

فيما كان أبو ناب والخنفور يتناولان طعامهما، والأسرى منشغلون بالنقاش، استغلَّ جود الفرصة للردِّ على أسئلة والده الذي أراد الاطمئنان على زوجته وأهله وسماع أخبار أهل قريته، فروى جود كلَّ ما يعرفه، وحدَّثه عن الذين تزوَّجوا والذين تخرَّجوا، وعمَّن سافر للدراسة ومن اختفى فتبيَّن أنَّه معتقلٌ في

إسرائيل بعد أن ضبطوه دون تصريح عمل.

في الخلفية داخل الزنزانة كان نادر يدير حديثاً من نوعٍ آخر مع الأسرى، فقد قال أحدهم إنَّه إذا كان الزيت يخفي، فلماذا لا نمسح به المستوطنات لإخفائها والخلاص منها؟

ثم قال آخر إنَّه يجب أولاً إخفاء الشوارع الالتفافية، ثم أضاف ثالثٌ بأنَّ الأهمَّ، وبالدرجة الأولى، إخفاء الجدار، فجاء صوت أحد الأسرى الملقب بـ «الكلاشن» قائلاً:

«شو؟ ما بدكم تتحرَّروا!؟ لازم نستخدم الزيت لإخفاء السلاح وكل شي بلزمنا لنأمن هروبنا من السجن».

ساد في الزنزانة صمتٌ بعد جملته هذه، ولم يردَّ أحدٌ على التساؤل، ثم أضاف: «شو مالكم؟[٧٩] بحكي شي غلط؟»

قال لهم جود قاطعاً الصمت إنَّ كمية الزيت محدودة، وأنَّ هذه الكمية لا تكفي لتحقيق رغبتهم بإخفاء المستوطنات والشوارع الالتفافية والجدار.

«طيِّب؟ هاظا الحكي أكَّد إنُّه لازم نستخدمه للشي الضروري»، قال كلاشن المصرُّ على الهروب من السجن. فسأله نادر:

«شو هوِّي الضروري برأيك؟»

---

(٧٩) شو مالكم: ماذا بكم؟

قال دون تردُّد:

«نتحرَّر من السجن».

«شو هوِّي السجن اللِّي بدَّك تحرِّرنا منه؟»

«السجن اللِّي إحنا فيه، ليش في سجن ثاني؟»

تدخَّل جود في النقاش وقال إنَّ أم رومي عندما كشفت له سرَّ الزيت أخبرته أنَّ مهمَّته أن يداوي أهله والناس من وباء العصر، وعندما سألها عن وباء العصر قالت فقدان الحرية، والسجن والجدار والحواجز هي ظاهر الوباء، وأنَّ باطن الوباء هو فقدان العقل والجهل وفقدان الأخلاق، وهي أخطر وأشدُّ السجون، كما قالت إنَّ الزيت يخفي ولا يشفي، فقد نخفي الجدار والمستوطنات والشوارع، لكنَّنا لن نشفى منها.

«فهمت؟» وجَّه نادر سؤاله لكلاشن المصرِّ على هروبهم من السجن، «فأي سجن بدَّك نتحرَّر منه!؟»

ردَّ كلاشن بعصبية:

«هذي فلسفة، السجن هوِّي السجن اللّي إحنا فيه، وإحنا أحقُّ الناس بإنُّه نتحرَّر».

«وإنتَ انسجنت عشان تتحرَّر ولا عشان تحرِّر!؟»

واجهه نادر بالسؤال الذي لم يكن ينتظر إجابةً عليه، وإنَّما أراد استفزازه به.

أحسَّ جود بالتوتر، وشعر أنَّه كان السبب في هذا النقاش الحادِّ الذي عكَّر جوَّ الزنزانة، فدسَّ كفَّه في جيبه يداعب حبَّات الزيتون وكأنَّها مسبحةٌ يبدِّد بها توتُّره، إلى أن جاء صوت كميل هادئاً دافئاً باعثاً في الجوِّ الإحساس بالطمأنينة، كما اعتاده رفاقه قبل ظهور جود الذي حوَّله من كميل المناضل إلى أبي جود الأب الذي يحتاج لمن يهدئه، وقال:

«كلنا من حقنا نتحرَّر، بس ما بعرف إذا كنَّا أحقِّ الناس. هل أنا أحق من طفل بحاجة لعلاج مش معطينه تصريح عبور؟! أو إنتَ»، قال وهو يشير بإصبعه نحو كلاشن، «أحق من أمهات وأبناء الأسرى الممنوعين من زيارتهم؟ مين أحق؟ مجموعة أسرى تتحرَّر من السجن، ولَّا مجموعة طلاب تصل جامعتها؟! أنا ما عندي إجابة قاطعة، بجد ما عندي. مرّات بفكر بآلاف الأطفال اللِّي عمرهم ما غادروا قُراهم ومُدُنهم ومسجونين في زنزانة كبيرة، شوفوا غزة مثلاً، الواحد بنولِد وبصير زلمة(٨٠) وما عمرُه شاف بلد غير بلده. ومن سخرية قدرنا، يا إمَّا بتعيش على شطِّ البحر وأمامك أفق مفتوح بس ما بتقدر تسافر، يا إمَّا بتعيش وبتموت وعمرك ما شفت البحر! ومرَّات بفكر بحالي وبالسنين

---

(٨٠) رجل

اللِّي أمضيتها في السجن بعيد عن أهلي وزوجتي وابني اللِّي صار زلمة وما عمري شفته. أنا مش بس ما عندي جواب، وكمان مش من حقِّي ولا من حق أي واحد فينا يقرِّر في هاظا الموضوع، جود هوِّي صاحب القرار، زي ما هوِّي صاحب سرِّ الزيت، والزيت زي ما سمعتوا كميته محدودة، يعني المسألة مسألة أولويات، وجود هوِّي اللِّي بيقرِّرها»..

كان جود منتبهاً مشدوداً لكلِّ كلمةٍ ينطق بها والده، فحديثه نبَّهه من البداية لأمورٍ كان يجهلها في الماضي ولم تكن في الحسبان، بل أضاءت أيضاً جوانب عديدةً في حديث أم رومي، جوانب كان غير قادرٍ على إدراكها، ورغم أنَّها قضايا جعلت الصورة أكثر تعقيداً مما كان يعتقد، إلا أنَّ المعضلة الأكبر كانت جملة والده الأخيرة بأنَّ القرار قراره وحده، فقد أمل في قرارة نفسه أن يعينه والده والأسرى على اتخاذ القرار، آخذين بالحسبان ما ذكره لهم مما قالته أم رومي التي أكدت على أنَّ الزيت يصبح دواءً فقط إذا اتخذ القرار الأخلاقي الصحيح. لكن، ما هو القرار الأخلاقي الصحيح، سواء اتخذه هو أو والده أو الأسرى؟

في هذه اللحظة كادت رأسه أن تنفجر من شدة التفكير، فحديث والده، وإن كان قد حسم الأمر وبات واضحاً للجميع أن القرار قراره وحده، إلا أنَّه لم يوقف النقاش داخل الزنزانة، وظلَّ

كلاشن مُصرَّاً على موقفه، معتبراً أنَّ جميع التساؤلات التي قدَّمها أبو جود غير منطقية، وأقلُّ ما يقال عنها إنَّها «كمالياتٌ ثانوية».

كان أبو جود يتأمل وجوه رفاقه، وبدا وكأنَّه مُصغٍ لما يقولون، بينما كان، في الواقع، يفكر أن يطلب من جود أن يمسح الزيت عن نفسه ويظهر أمامه بالصوت والصورة، فسأل نفسه إن كان من حقِّه مشاهدة وجه ابنه أمامه مباشرةً فيما مئات الأسرى محرومون من الزيارة، فقد وُلِدَ وأصبح صبيَّاً ولم يلمسه أو يرَهُ إلَّا في الصور التي أحضرتها له زوجته، لكنَّه سرعان ما تراجع عن الفكرة التي تسلَّلت إلى قلبه، وكادت للحظةٍ أن تضعفه وتعرِّض جود، الذي ما كان ليرفض طلب والده، للخطر، ولكي يطرد الفكرة من رأسه، نهض عن كرسيه وسار نحو خزانته وتناول منها قطعتين من الحلوى ودسَّهما عبر قضبان الشباك لجود الذي مدَّ أصابعه لالتقاطها، فلامس يد أبيه، فانحنى أبو جود وقبَّل أصابع ابنه. تنبَّه الجميع للمشهد، فساد الصمت وتوقف الجدل الذي كان دائراً، وكأنَّ الجميع سمعوا كلاماً أفرغ كلماتهم من الطاقة وغدت دون معنى.

لم يكن جود قد قرَّر بعد بشأن الزيت، لكنَّه أعاد ترتيب أفكاره وهو يعيد تذكير نفسه بكلمات أم رومي، فهي الوحيدة التي اعتبر كلامها ملزماً بالنسبة له.

«عليك اتخاذ القرار الأخلاقي الصحيح، عليك أن تبحث بالعلم حتى تكتشف باطن السرِّ، الإظهار»، ثم تمتم بكلماتٍ كاد يسمعها الجميع، «والإظهار هو الوحيد القادر على تحرير أقدم سجنٍ، وهو المستقبل، والمستقبل»، قال لنفسه، «هو أحقُّ أسيرٍ بالتحرير».

سحب جود من جيب بنطاله الخلفيِّ جهازه النقال، وطلب من أصدقائه الوقوف عند حافَّة الشباك ليلتقط لهم صورةً جماعيةً مع والده والأسرى الذين تجمَّعوا خلف القضبان، ثم طلب من أبي ناب أن يأخذ له صورةً مع والده. وبعد أن استعاد الجهاز من أبي ناب ضغط على شاشةٍ سوداء بدتْ وكأنَّها علبة مليئة بالزيت، أو كأنَّها مندل مسحور يسير إلى الماضي ويتحرك به نحو المستقبل.

أدخل جود الجهاز من بين القضبان وقال لوالده:

«خلِّي هاظا معكم، مش رح أقدر هسّا[81] أقرِّر، بس أنا تقريباً صرت عارف شو لازم أعمل، بنحكي بعدين، خلّيتلك كل صوري وكل صور إمي والبيت».

«طيِّب وإنت؟ خلِّيه معك على الأقل مشان الصور، صورنا وصور أصدقاءك»، قال أبو جود وهو يقلِّب العلبة التي يدرك أنَّها

---

(٨١) الآن

جهازاً نقالاً، لكنَّه بدا غريباً، فهو لم يرَ أجهزةً نقالةً منذ أكثر من سبعة عشر عاماً، ولم يصادف في حياته جهازاً من دون كبسات.

أجابه جود: «الصور صاروا عندي على الحاسوب، نقلتهم كلهم».

قال ذلك وهو يحاول أن تبدو كلماته إجرائيةً جافةً خاليةً من أيّة مشاعر، فهو يخشى من أن يؤثر الانفعال العاطفي على والده. ودَّعهم هو وأصدقاؤه بكلماتٍ مقتضبةٍ، وقال للأسرى: «مش رح تكون هاي زيارتي الأخيرة، رايح أظل معكم على تواصل».

مدَّ أصابعه من بين القضبان وناول والده ثلاث حبَّات زيتون جرجير (زقوت) أسود كالليل قائلاً له:

«خلّيهم معك، رايحين يلزموك، خبّيهم في مكان معتم».

أغلق أبو جود يده على حبَّات الزيتون، فجود أراد أن يبقي معه ما يمكنه من إخفاء الجهاز النقال عن أعين السجَّانين عند الضرورة، وأضاف:

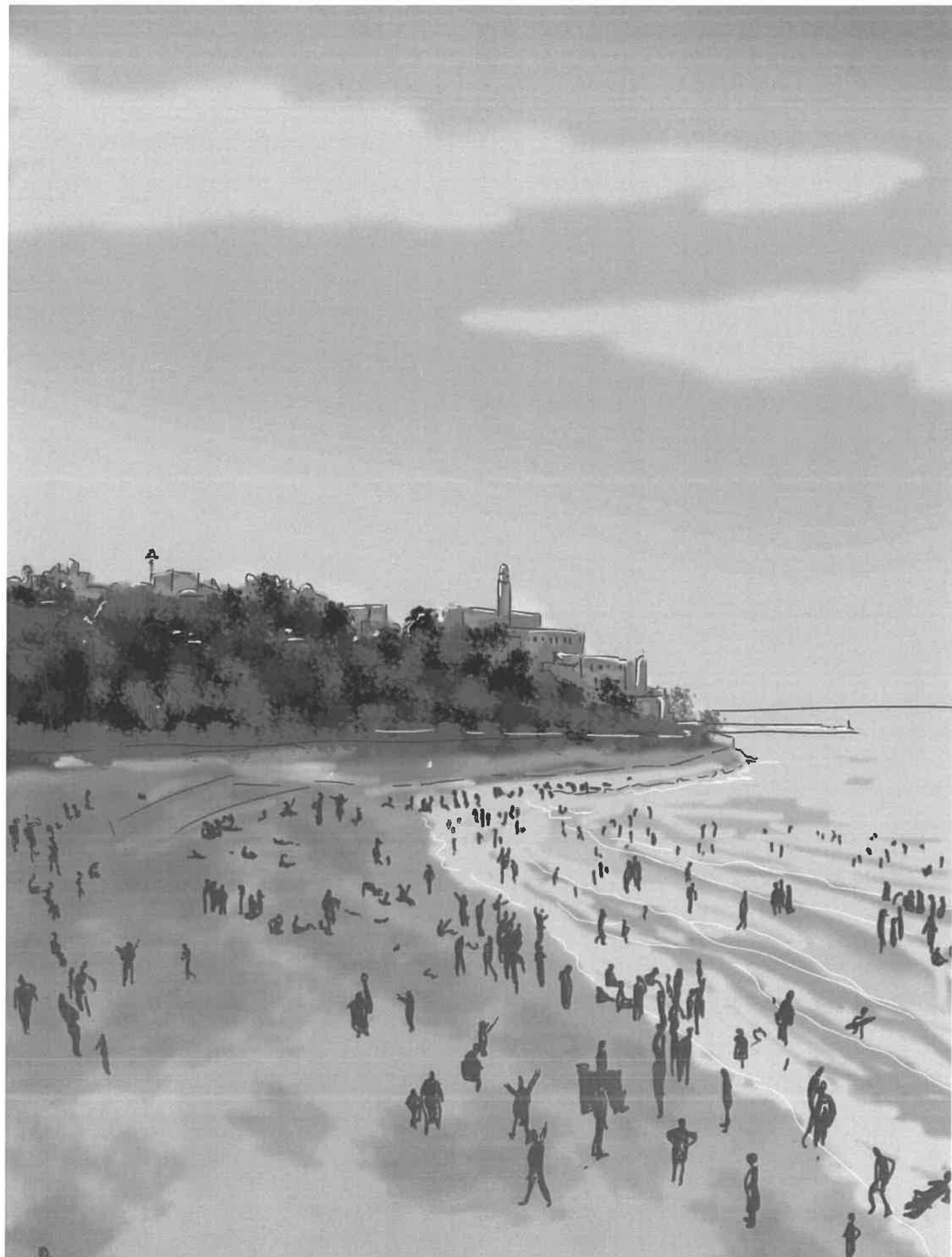
«يابا، كون واثق إني مش رايح أخذلك ولا أخذل الشباب».

كانت هذه الكلمات قد خنقت أبا جود، وأحسَّ بعدها أنَّ الزنزانة تدور به، شعر بحجم العبء الذي أنزله على أكتاف هذا الطفل. ها هو قد فقد طفولته وغدا رجلاً قبل أوانه! ثم جاء صوت نادر من داخل الزنزانة:

«ما تقلق علينا، وأبوك هيَّاتك شايفه بخير، أهم شي ممكن تعمله إلنا هو إنك تهتم بتعليمك ومستقبلك».

خطا جود وأصدقاؤه نحو الباب الذي دخلوا منه وهم يلوِّحون للأسرى، فيما كان أبو جود ورفاقه يحيُّونهم بإشارة النصر.

استغرقهم عبور كلِّ البوابات والخروج من السجن وقتاً أطول بقليلٍ مما قدَّره جود، وكان عليهم الوصول إلى الطريق المؤدي إلى مفرق اللجون بالقرب من سجن مجدُّو، ففي سهل مرج بن عامر، وتحديداً في الجزء الممتدِّ من اللجون حتى مشارف العفولة، تعيش أسرة السمُّور، حيث مزارع الجزر والخضار التي تملأ المرج بطوله وعرضه. عند وصولهم المفرق ودعوا السمُّور بعد أن اتفق معه جود على أن يلتقيه في ذات المفرق أيام الجمعة الأولى من بداية كلِّ شهرٍ في ساعات الصباح الباكر، وقال له إنَّ مهمته لم تنته، ودعاه ليشاركهم ما تبقى من المهمَّة. ركض السمُّور بين الزرع، فيما ظلَّ أصدقاؤه واقفين ليتأكدوا من أنَّه قد عثر على أمه السريعة وأشقائه حبوب وشلهوب، ولم يغادر جود المكان إلَّا حين شاهدهم يقفزون بين الزرع سعداء بعودة السمُّور، وإلى أن اختفوا في الأفق الذي امتزج أزرقُهُ بأخضره، ولم تعد بالإمكان رؤيتهم.



صاح أحد الأسرى: «حطُّوا على القناة العاشرة».

سارعوا في زنزانة أبي جود إلى ضبط تلفازهم على القناة العاشرة التي عرضت صوراً لأطفالٍ وحيواناتٍ التقطت على شواطئ حيفا وعكا وطبريا وهم يسبحون ويلعبون ويلهون فرحين، وقال المذيع إنَّ مئات آلاف الصور من هذا النوع انتشرت مؤخراً على مواقع التواصل الاجتماعي الفلسطينية، وأنَّ الغريب في الأمر، والذي بات يقلق الجهات السياسية والأمنية الإسرائيلية، هو أنَّه لا أحد يعرف كيف ومتى وصل هؤلاء الأطفال الفلسطينيون إلى الشواطئ، فالأجهزة الأمنية الإسرائيلية نفت منحها مثل هذا العدد الكبير من تصاريح الدخول، وأنَّه لا بدَّ من وجود جهاتٍ منظمةٍ تمتلك إمكانية تهريب مثل هذا العدد الكبير من الأطفال دفعةً واحدةً، كما أضاف مراسل القناة العاشرة، وعلى لسان وزير الأمن الإسرائيلي، أنَّ من يقوم بتهريب هؤلاء الأطفال يقوم بعملٍ تخريبيٍّ.

ما إن انتهى التقرير الذي ساد خلال بثِّه الهدوء التامُّ في جميع الزنازين، حتى بدأ الأسرى بالتصفيق والصفير والدقِّ على

الأبواب والشبابيك معبِّرين عن فرحهم وانتصارهم على السجَّان، فهذه هي المرة الأولى منذ سنواتٍ طويلةٍ يشعر فيها الأسرى بلحظة بهجةٍ وسعادةٍ حقيقية.

صاح أحدهم من داخل زنزانة أبي جود وقال:

«يسلملي عقلك يا أبو الجوج».

لم يكن جميع الأسرى يعرفون حكاية سرِّ الزيت، لكن جميعهم عاشوا لحظة الانتصار، فأبناؤهم شاركوا في صنعه. بعضهم شاهد ابنه في الصور، وآخر تعرَّف على شقيقه. وفيما دبَّت الحياة في الزنازين، كان أبو جود الذي انتعشت روحه يجلس صامتاً يتأمل وجوه رفاقه الفرحين، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ غيَّرت ملامحه، فنادى أحد الأسرى طالباً منه أن يخرج الجهاز النقال من مخبئه لإجراء اتصالٍ ضروريٍّ. لم يناقش الأسير، وأحضره رغم أنَّه كان بذلك يكسر قواعد الحذر، فهو المسؤول عن إخفاء الجهاز في مكانٍ آمنٍ. تناول أبو جود الجهاز، وقال دون مقدماتٍ بعد انتظارٍ قليل:

«صحيح الكلام؟»

ردَّ عليه جود من الطرف الأخر:

«صحيح».

«هاظا كل قرارك؟»

«لأ، هاظا بس البداية، الجزء الأكبر خصَّصته للبحث العلمي».

«بس إنتَ عارف، الكمية قليلة».

«البحث العلمي رح يحوِّلها لنوعية».

«علشان شو؟»

«علشان نحرِّر أقدم أسير عربي».

«مين هوّي؟»

«المستقبل يابا، المستقبل».

يقودنا الكاتب الأسير وليد دقة في رحلة عجائبية وخارقة في «حكاية سر الزيت»، ويمد لنا من قضبان سجنه مرايا نرى فيها أنفسنا من خلال هذه الحكاية الساحرة. ما هو سر الزيت العجيب الذي يكتشفه الطفل جود في كرم زيتون قريته، ليساعده في الوصول إلى سجن والده الأسير الذي حُرم من رؤيته منذ ولادته؟

يحتاج جود إلى توظيف مقدرة جبارة تتظافر فيها قوى وطاقات الطبيعة من الحيوانات (الأرنب السمَور والعصفور أبو ريشة والقط الخنفور والكلب أبو ناب)، وبمساعدة شجرة الزيتون العجوز (أم رومي) وزيتها السحري، لاختراق جدار الاحتلال المدجج بالأسلاك الشائكة وحرَاس السجن للوصول إلى الأب في زنزانته في سجن العفولة. تذكرنا الحكاية، نحن القابعين في الطرف الآخر من المعتقل، أنه لا سجن ولا قيد قادر على كبح جماح العقل والخيال.

~هدى الشوا

تعتبر رواية سر الزيت للأسير وليد دقة العمل الأول لليافعين ضمن ما يمكن تسميته بأدب السجون الفلسطيني. وهي رواية مثيرة تحكي قصة الطفل «جود» الذي يستعين بأصدقائه الحيوانات وبشجرة الزيتون لزيارة أبيه السجين،وهي نموذج لأدب المغامرات الذي يعيش أبطاله في ظل الاحتلال، وما تستدعيه الظروف من ضرورة التخفي، دون أن نغادر عالم الخيال والطفولة.

~ليلى البطران


ISBN 978-9950-27-005-3
9 789950 270053


مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي
Tamer Institute for Community Education